ممدوح رزق

مجموعة قصصية

دون أن يصل إلى الأورجازم الأخير





صورة الغلاف من فيلم To Be Or Not To Be
(1942)
لـ Ernst Lubitsch

إلى

الشحات سند محجوب

ماهر منير كامل

. أنت تموت... هل تمتعت بحياتك؟

. نعم

. كيف؟

. مرة تحت شجرة قديمة سلمتني فتاة لا أعرفها رسالة ومضت...

. هل قرأتها؟

. نعم

. ماذا كانت تقول؟

. لا شيء!

فلاديمير هولان

(1) سباق الدعابات الثقيلة

بدأ الزهايمر بجمع الأكياس المستعملة التي ظلت فارغة، ومر بنسيان الماضي. حيث لم يكن هناك ألم على الإطلاق. وانتهى باستعادة العدم فيما بدا أكثر المشاهد إثارة ورحمة.. كان الأمر عادياً لرجل وصل إلى منتصف الستينيات دون رعشة في العالم.. لكن الزهايمر صار أجمل وأنقى حين بدأ مع ابنه الذي لم يكمل الأربعين؛ إذ لم يتوقف عند هوس الاحتفاظ بالأكياس المستعملة التي ستظل فارغة بل أصبح أشرس همومه الوجودية عجزه عن تفسير كيف يمكن للبشر الاستمرار في الحياة دون جمع الأكياس المستعملة التي ستظل فارغة.. ربما حصل على قدر من العزاء حين جاءته طفلته ذات الأربع سنوات بكيس الساندوتشات الفارغ من الحضانة وقالت له أنها احتفظت به من أجله، وأنها ستفعل ذلك كل يوم.. لم يكن في عينيها عاطفة تقليدية لابنة تريد إسعاد أبيها، أو استيعاب مبكر لضرورة الحفاظ على إرث العائلة بل إيمان حصين بأنه سيكسب في النهاية.

(2) أخسر بخطة نابليون كل صباح

مساء الخير يا عزيزي.. أشكرك لقبول الصداقة، ولو أن الشكر سيوضع حتماً في مكانه الصحيح لو ساعدتني على بلوغ الغاية التي طلبت من أجلها صداقتك.. الموضوع باختصار أن زوجتك أرسلت لي منذ فترة قصيرة طلب صداقة، وقبلته.. بعد ذلك كتبت لي رسالة تفيد بأنها معجبة جداً بنصوصي خاصة الايروتيكية منها، وطلبت نسخاً إلكترونية من كتبي فأرسلتها إليها ممتناً.. كان بديهياً أن آخذ جولة في صفحتها فاكتشفت أنها لم تنشر سوى صورة شخصية واحدة صدقني لم أستطع أن أحدد من خلالها هل هي جميلة أم لا.. طبعاً ما أقصده هو جمال جسمها إذ كان وجهها نسخة محسّنة من (إنعام سالوسة).. اكتشفت أيضاً أنها كاتبة، وأنها نشرت على صفحتها بعض النصوص الايروتيكية القصيرة التي تستعرض فيها هياجها، وهوسها أن تُعامل في السرير كعاهرة عاشقة للعنف والبذاءة وتسمية الأشياء بأسمائها.. كان هذا جميلاً بالطبع، وكان جميلاً أيضاً أن نتبادل حوارات قصيرة لم تتجاوز الحدود المسالمة لصداقة تقطع بتمهل خطواتها الأولى.. بدا لي حينئذ أن عبارة (أعتذر عن التعارف الشخصي) التي وضعتها زوجتك بين قوسين

تحت اسمها تعني مزاجية الانتقاء، التي تتولى بنفسها مهمة التحديد والاقتراب ومد اليد للمصافحة، وليس رفضاً لفكرة التعارف ذاتها.. كان يبدو أحياناً أن زوجتك لديها الرغبة في التحرر من تلك الحدود، لكنني في كل مرة كنت أحاول الاستجابة لتلميحاتها كانت تتراجع ثانية إلى مخبأها المنضبط.. من الواجب، وحتى أكون أميناً معك أن أخبرك بأن استجاباتي لم تتسم بالاندفاع، وإنما كانت على قدر كبير من التحفظ.. إن أبعد ما يتصف به سلوكي في لحظات كهذه ياعزيزي هو التهوّر إذ أن الفيس بوك من الوارد جداً أن يشتعل فجأة بحفل فضائحي تُزينه سكرين شوت لـ (إنسانة فاضلة انتهكت براءتها حيوانية سافل كانت تظنه مُتحضراً).. لاشك أنه من السهل عليك تخيّل كيف تحوّلت تلك العلاقة من مجرد عبء غامض إلى أرق ثقيل مع استمرار زوجتك في نشر نصوصها الشبقية، وصورها التي لا تحسم هل هي جميلة أم لا، بالتزامن مع أحاديث الشات المقتضبة التي لا تخرج عن كونها لغة بائسة تحك نفسها في الفراغ.. أردت بواسطة مراقبة علاقاتها مع أصدقائها، أو بشكل أدق القشور الطافية من صلاتها بالآخرين الحصول على معرفة تُمكنني من تشكيل يقين عن ما لم أنجح في التوصّل إليه من طبيعتها، ولأكن أيضاً أكثر دقة: استنتاج الآماد المحتملة التي هي على استعداد أن يمتد إليها نشاطها العاطفي مع الرجال.. ظل كل شيء عادياً ومبهماً لدرجة الخصاء يا عزيزي.

إن حياتي لا تنقصها زوجتك؛ ففيها من تقتله النفسنة، اللزج الذي اعتقد منذ زمن بعيد أن علاج حروقه مشروط بمواصلة تقيوء الذم المائع والشتائم المتنكرة على فيسبوك للأبد كربة منزل خاب أملها، ولم تساعدها الظروف في

العمل كمومس.. هناك أيضاً الغيور المجهول الذي تتجلى تعاسته على نحو غير متوقع عندما يكتب تعليقاً بضيناً معشماً جحيمه أن يقدر على إفساد أوقاتك السعيدة.. فيها الحروب والمعايرات بين الفاشي الإسلامي والفاشي الماركسي، والأصحاب الذين يتهكمون على مآسي بعضهم، والفاشل الذي لم يسبق له على الأقل تبادل قبلات في الهواء مع معزة، ويجاهد للاختباء من هياجه بواسطة التنظير المادي للجمال كاستمناء أكثر وقاراً.. حياتي فيها تأكيدات مستمرة من نفسي إلى نفسي بأنه لا أحد يعرف الآخر، وأنه لا يوجد أحد كتب كل شيء.. هناك أيضاً من يتأجل انتحاره كلما توهم أن المحبة تُزِيدُني، والجفاء يُنقِصني، وكذلك من أُدربهم بقصصي القصيرة على الكتابة، وتخبرني نصوصهم أنني مُعلم جيد.. إنني أعترف يا عزيزي أن الجوهر الحقيقي للمشكلة مرتبط بخوفي، ولهذا كان على زوجتك أن تساعدني بعزمٍ أشد.. ربما تجد معاونة كريمة على فهم علاقة كتاباتي وخاصة رواية (الفشل في النوم مع السيدة نون) بأصدقائي من خلال هذه السطور القليلة لـ (هنري ميلر) في ثلاثية (الصلب الوردي): (عندما يحاول الإنسان أن يُنجز عملاً يتجاوز قدراته المعروفة فمن العبث السعي وراء نيل استحسان الأصدقاء. الأصدقاء يكونون في أحسن حالاتهم في لحظات الهزيمة – علي الأقل هكذا تقول لي تجربتي. ومن ثم إما يخذلوك كليًا أو يتجاوزون أنفسهم. والحزن هو أوثق رباط – الحزن وسوء الحظ. ولكن أثناء اختبارك لقواك، وأنت تحاول أن تنجز عملاً جديداً، فإن أفضل صديق جدير بأن يثبت أنه خائن. وتكفي طريقته في تمني حسن الحظ لك، وعندما تطرح أمامه أفكارك الخيالية، لكي تثبط همّتك. إنه يؤمن بك فقط مادام هو يعرفك، أما احتمال أن تصبح

أكبر مما تبدو فأمر يثير قلقه، ذلك أن الصداقة تقوم علي أساس التبادلية. ويكاد يكون من قبيل القانون الثابت أنه حين ينطلق إنسان في مغامرة كبري يتعين عليه أن يقطع كل روابطه ويجب أن يرحل إلى البرية، وبعد أن ينتهي من مصارعتها يجب أن يعود ويختار له مريداً).

لا أعرف يا عزيزي لماذا يبدو غريباً لي الآن وبكيفية مجحفة ومضحكة حد الإهانة أن أعوامي الأربعين ـ إلا ثلاث سنوات ـ لم يعبرها حتى بطريق الخطأ صديق كان يمكن لي استخدام شقته في النوم مع النساء ولو بمشاركة من رفاق الجوع.. إنني لا أجد تفسيراً منطقياً سوى وحشية الحظ خصوصاً مع الوفرة العظيمة المتنوعة من الأصدقاء الذين يتكدسون في الماضي.. لكنني والتزاماً بالأمانة التي حرصت عليها منذ بداية كتابتي إليك أخشى التمادي في التنقيب داخل الذاكرة، والتفتيش عن مبررات حقيقية خشية العثور على مشاهد مدفونة تثبت عند استعادتها أنني كنت أتفادى التورط في ذلك النوع من المواجهات بحيث لم أكن أمر أصلاً بالقرب من الاحتمالات الضعيفة التي يمكن تنتهي بي في السرير مع غريبة.

أي معنى سيخطر في ذهنك حين أقول لك أن من أكثر العادات التي تبعث السرور والألم في قلبي هو تصفّح موقع (كايرو زووم) كل ليلة؟.. في حياتي من لا يترك ثقب إبرة يصادفه حتى يباهي فيه بأنه مجنون وقادر على ارتكاب أي جريمة، وحين تقرأ نصوصه لا تشم ـ على أقل تقدير ـ رائحة خدش لجسده أو لأجساد محارمه.. إن متعتي الكبرى هي نصب أفخاخ من الثقة الزائفة بيني وبين القارئ مما يوصم كل إرادة للتوقع أو التصديق بلعنة الغفلة.. يصبح كل التزام بتأويل بمثابة موافقة ضمنية على أخذ دور الفريسة

التي حُطم رجاءها سلفاً.. لست وحدي من أقول هذا بل الغرباء الذين لا يعرفون شيئاً عن حياتي الخاصة، ولكن حدث أن اعترضت دعاباتي اللغوية طريقهم ذات يوم وهم سائرون في الظلام.

هناك أيضاً يا عزيزي من يؤكد على أنه قتل رقيبه الداخلي، وحين تقرأ كتاباته (الجريئة) لا يكون بوسعك التفرقة بينها وبين ما تنتجه بصيرة فتاة خجولة أو ولد أحسن أبواه تربيته.. إنني أكره المصطلحات، وأحتقر التعبيرات الشائعة لكنني لا أجد ضرراً هائلاً لو قلت لك الآن أنني مريض فعلاً بما يُعرف بـ (الرهاب الاجتماعي) حتى لو كنت معتاداً على السخرية من تفاهة الوصف.. هذا النوع من الرعب لا يتجسد بصورة واضحة على عكس المنتظر في مجزرة الواقع التقليدي بل يظهر أكثر حدة على فيسبوك مثلاً حيث يُفترض ـ كإحدى إمكانياته ـ أن تتاح لك فرص أقل تهديداً في التواجد وسط الأشباح.. لكنني اكتشفت ـ ولك أن تتصور فداحة اليأس الكامن في هذا الاكتشاف ـ أنني لا أمتلك الشجاعة للكتابة عن السخافات المملة أو المفارقات الوضيعة لتعاقب أيامي، التي لا تقل غرابتها أو روحها الكوميدية عن (الأعاجيب المبهرة) التي يُدونها دجاج الفريند ليست.. الفرق أنهم لا يرون مشكلة في التطفل على حواس غيرهم بسيول لا تهمد من الثرثرة الشخصية الفارغة التي لا تهم أحداً.. إنني حتى أجد حرجاً بالغاً في النشر النادر لمواد فنية تنتمي إلى ذائقتي فقط لإدراكي أنها تخص انحيازاتي الجمالية، وليست بالضرورة ذات جدوى لغيري.. أنت لن تجد أغلب ما في صفحتي إلا ما هو حتمي: نصوصي، ومقالاتي، وأخباري أو بقول آخر: حياتي الانتقامية.

ذات يوم طلبت زوجتك رقم موبايلي فأعطيته لها بسعادة من يعطي عنوان بيته لراقصة ستربتيز.. لم يخطر في بالي أن المكالمة الهاتفية التي استغرقت أكثر من ساعتين ستكون امتداداً لتعاسة الشات بل كنت متأكداً من هذا.. لا تسألني لماذا يا عزيزي حيث أتصور أنه أصبح من اليسير التخلي عن الحاجة لطرح السؤال بعد الدروس المختصرة التي أعطيتها لك عن انكماشي.. ظلت اللغة بيني وزوجتك متمسكة ببؤسها، وإن كان حضورها هذه المرة كصوت أعطاها صورة المهزلة الخرافية.. حافظنا بمنتهى الإخلاص على المراوغة، والالتباس، والتلميحات الشاحبة التي أسالت الدم من عضوي.. لم تأتِ سيرتك في المكالمة سوى مرة واحدة بالصدفة حين أخبرتني كمعلومة عابرة بأنك لست نشطاً على فيسبوك، ولا تجلس أمامه إلا كل فترة طويلة.. تذكرت بعد انتهاء المكالمة أنها سبق أن كتبت عنك على صفحتها أنها تعشق التراب الذي تمشي عليه، ولو وضعنا هذه العبارة بجوار نصوصها التي لابد أنك قرأتها، وتحلم فيها بجنس غير رحيم أشرس مما يمكن يعطيه لها زوج أو حبيب أو رجل واحد فإننا سنصل إلى مستوى من العماء لن يصبح من العبث عنده أن أكتب إليك هذه الرسالة.

حياتي يا عزيزي صدئة كمشهد أمواج البحر في بداية الحلقة الأولى لمسلسل تدور أحداثه في الإسكندرية.. مطفأة كفيلم لصحفي يتحمّل النزوات العدائية لكهل متصعلك كان مشهوراً في يوم ما حتى يكتب حكايته.. حياتي صارت عجوزاً، وأكثر ما ثبّت هذا الإيمان ليس الغبار الأبيض المتزايد الذي لا سبيل لإزاحته من شعري، ولا تصدّع جسدي من الداخل بل عندما ضبطت نفسي عاجزاً عن الابتسام بلذة التشفي المعهودة

أمام المنظر السينمائي المضجر لغضب رجل أخطأ الجرسون حين قارن بين شيخوخته وشباب زوجته الجميلة وسألها: (هتطلبي زي بابا؟).

إنني لا أريد أكثر من الإجابة على هذا السؤال: هل لديك علم حول إذا ما كانت زوجتك تنقل أحلامها الشهوانية العاتية من الكتابة إلى الحياة أم لا؟.. أما ما سيُعد برهاناً على أقوى أنواع الإيثار كرماً لو استفسرت منها وأخبرتني عن ما إذا كان لديها استعداد لأن أشارك في هندسة الري تحت بطنها.

وأخيراً فإنني مؤمن تماماً بأن الكتابة مثلما تحتاج للأصدقاء، ولخبرة العداء الثمينة التي تمنحها الصداقة فإنها تتطلب أيضاً دهس المعركة بقدميك في لحظة معينة تكتمل عندها الخبرة المنتصرة.. الوعي الذي تتحالف بين تخومه الكتابة مع التفاصيل التي تكسر عيون الأصدقاء، والمحفوظة في سجلاتهم السوداء الراقدة بأمان داخل رأسي.. لهذا يا عزيزي لا أجد تعبيراً عن امتناني لاستجابتك التي لا أشك مطلقاً في أنك لن تبخل عليّ بها أجمل من هذه الكلمات المقدسة لـ (تشاك بولانيك):

"Have your adventures، make your mistakes، and choose your friends poorly -- all these make for great stories."

(3) الحوض الزجاجي

كنت أجلس بجواره، لكن هذا لم يكن يعني لحظتها الرفقة العادية التي يصبح فيها المرء قريباً من جسد تقليدي يُشكّله مزيج ضبابي من شخصيات مختلفة.. كان فرداً محدداً بملامح وتكوينات مدركة، يمكن بسهولة لمس حوافها.. إنه كائن (ثمانينيات المنصورة) الذي ضاجع راقصات (شارع صيام)، وشرب البيرة مع المارلبورو الأحمر والفول السوداني في فنادق (مكة) و(القاهرة) و(كليوباترا)، وغازل بنات ونساء (السكة الجديدة)، وحضر حفلات رأس السنة في (مارشال المحطة) والأفراح في (أبو شامة)، ووزّع (النقوط) على الراقصات والمطربين والموسيقيين، ولعب القمار على القهوة (الأهلية)، وأكل كثيراً في (رستوران داندي)، وفي شارع الهرم رقصت النجمة (هندية) على طاولته، قبل أن يدور على الكباريهات متتبعاً (عدوية) طوال الليل، وحتى الصباح.

حضوره كان يعني أننا نعيش الآن في هذه الحقبة (الثمانينيات)، وداخل هذه المدينة (المنصورة) حتى لو كان الزمن والمكان مختلفين.. أتأكد الآن من هذه المعرفة: طبيعة وجوده التي انتزعت حينئذ استقلالها بوضوح تام من كيانه المحتشد، وبتخوم صلبة، لن تسمح بالضرورة أن تتداخل معها، أو تشاركها أي طبائع أخرى من شخصيته، تشوّش على نقائها، أو تشتت بميوعة

هيمنتها، وهذا ما يحتّم على الوقت والحيز الجغرافي الحاليين الاختفاء تحت ثقل زمنه ومكانه.

كانت الحجرة مضاءة بالنيون، لكنه لم يكن مجرد ضوء النيون الشائع.. لحظتها كان الضوء الذي يجعل من الظلام، أو على الأقل خفوت الأنوار في الخارج يقيناً محسوماً، غير قابل للجدل.. الضوء الذي يُعرفك بشغف على احتكار السطوع، خاصة حين تطير عيناك من النافذة المفتوحة، وتحلّق لذتك في الفضاء الليلي الممتد بلا نهاية حول الحجرة، حيث ترقد أسفله الشوارع والبيوت التي نامت مصابيحها، أو التي على وشك النوم.. كان ضوء نيون لعائلة تحتفل سعادتها بحكايات لا تخص أحداً سوى أبنائها، ولكنها تقبض على العالم.. حكايات تنتمي إلى (الثمانينيات)، وإلى (المنصورة).

لم تكن هناك عائلة حقاً.. كنت أنا، وهو، وامرأة عجوز فحسب.. لكن يبدو أن اتفاقاً ضمنياً سبق وأن خلق داخلنا تصديقاً مشتركاً بأننا عائلة بالفعل، الأمر الذي بدا معه جلوسنا كأنه تعبير عن الألفة التي تُشيّد جسوراً حريرية بين الأقارب.

كان يحكي كيف كان يبدأ (كازينو الليل) سهرته بمطلع أغنية صاحبته (شريفة فاضل): (الليل)، مع انبعاث الأضواء الهائجة.. قاطعته العجوز بكلمات غير مفهومة.. لم تكن جالسة معنا، وكلماتها ـ رغم كونها غير مفهومة ـ كانت توثيقاً لمتعة الإصغاء التي ينسجها الحكي.. كانت تكلمنا من وراء مكتبة كبيرة، تفيض رفوفها العالية والعريضة بالكتب.. عين من عينيها تنظر إلينا من شق ضئيل بين كتابين في طرف المكتبة، والعين الأخرى تنظر إلينا من شق ضئيل مشابه بين كتابين في أقصى طرف المكتبة الآخر.. كانت ساحرة مخيفة.

في وسط الحكي خرجت العجوز من وراء المكتبة.. كان شعرها أبيضاً، قصيراً، ولم تكن تغطيه، وإنما عقصته خلف رأسها تاركة ما تحرر من الضفيرة المستديرة منكوشاً.. كانت ترتدي ذلك النوع من جلاليب البيت الذي لا يليق إلا على الأمهات أو الجدات.. عندما رأيت ملامحها لم أعرفها، وإنما كنت مقتنعاً تماماً أن في وجهها لا تكمن جميع النساء اللاتي عرفتهن، وكذلك اللاتي لا أدري عنهن شيئاً فحسب، وإنما كان في ملامحها أيضاً غموض لازمني يتخطى كونها امرأة، بل يتعدى البداهة البشرية أصلاً.. كانت هناك مراوغة تتجاوز التمييز بين الذكوري والأنثوي، تمتلك الذاكرة السرية للحياة والموت، ولا تبقيها كمخلوق مفزع، ولا تثبّت الطيبة في نفس الوقت.. تتحدث معنا بكلماتها المعتادة غير المفهومة، دون أن يبدو علينا القلق من الالتباس الذي يزاوج بين كونها غريبة، وأنها حارسة على (ثمانينيات المنصورة) أيضاً.

فجأة وجدت نفسي أنهض، وأجري داخل الحجرة.. لم أكن أعرف هل أريد الخروج، أم الاكتفاء بالهروب في الداخل.. هل كان يوجد باب أساساً.. أسرعت العجوز دون جزع، أو ارتباك، أو تردد، وإنما بمنتهى الهدوء والاطمئنان بدأت ترفع أغطية المقاعد والكنبة، وتُمسك بالأشباح المختبئة أسفلها، ثم تقذفها بتلاحق قوي بين قدميّ.. كانت الأشباح مزيجاً من دخان، وحيوانات غريبة، ميتة، ومسلوخة، وفقاعات رمادية محبوس فيها حروف، وأرقام.. ظللت أجري داخل الحجرة محاولاً تفادي الأشباح التي تتدافع على الأرض بشراسة نحو المسارات المختلفة التي أتجه إليه.. كان كائن (ثمانينيات المنصورة) يراقب المشهد مذهولاً، يمنعه الرعب من التفكير في ترك الكرسي الذي يجلس عليه.

(4) ليس مجرد جبل يمكن هدمه بالأظافر

ذات مساء بعيد كان وحده في البيت، يؤدي بوجهه في المرآة حركاته الغريبة، ويغني ما يخطر على ذهنه من أغاني معروفة، مستبدلاً كلماتها الأصلية بألفاظ وعبارات تتخطى الحدود المتخيلة للبذاءة.. لم تكن تلك الممارسة تنتمي لقائمة هواياته التي يحتاج للقيام بها من حين لآخر، فهو لم يتعوّد مثلاً على الإسراع بالرجوع إلى منزله، أو النهوض من أمام شاشة الكومبيوتر فجأة، أو استئذان ضيوفه كي يجري نحو المرآة، ويؤدي حركات وجهه، ويرتجل كلمات بديلة للأغاني.. كان يفعل هذا فقط حينما يكون بمفرده، وإذا مر بالصدفة أمام مرآة.. لابد أنه تصوّر أكثر من مرة أن يراه، أو يسمعه شخص ما، ولابد أيضاً ـ وهو لم يحدث على الإطلاق ـ أن يوجّه إليه هذا السؤال المنطقي: لماذا تفعل ذلك؟.. في كل مرة تتمسّك دماغه بإجابة بديهية ثابتة، وهي أنه فشل بكفاءة خارقة على مدار عمره في أن يكون صديقاً لكل من عرفهم، وألا يسمح لأحد منهم أن يكون صديقاً لسواه.. المغامرة التي بدأها منذ اللحظة الأولى لوجوده داخل المدرسة الابتدائية، وانتهت تقريباً بعد إصداره لرواية قصد من ضمن أهدافها أن يقطع علاقته بكل من تبقى من أصدقائه.. بالطبع لديه فائض من المشاهد الداعمة لهذه الإجابة، يرى نفسه منذ الطفولة يتنقل بينها ليس للحصول على الحب

والتقدير كما يتمنى الشخص العادي، بل سعياً لاحتكارهما، وحرمان كل أصحابه منهما.. كان دائماً يريد أن يبقى وجهه هو الوحيد المتفرّد بالإضاءة، وأن تظل بقية الوجوه مطفأة، يعذبها الظلام واحتراق العيون كلما نظرت إليه.. هل تتذكر حينما كانت أختك تلعب (السلم والثعبان) مع أولاد عمك، ثم أمسكت باللوحة الكارتونية، وطوحتها بعيداً مع الزهر والقشاطين لتهدم الدور.. كان أسرع واحد في العالم يخاصم أصدقاءه.. لم يكن يغضب فحسب من تصرّف جارح، أو كلام ساخر، أو ضحكة مهينة، وإنما كان هناك أيضاً ما هو أقوى.. الأشباح النارية الطائشة التي تتراقص في دمائه، وتدفعه كوابيسها طوال الوقت لمحاولة تثبيت أصدقائه عند قدميه.. أن يحافظ على الوضعية المثالية لهم كحرّاس أوفياء، ينبغي أن يوفروا له غذاءه اليومي من الاحترام، والود، والطيبة الخاضعة.. ألا تكون هناك أدنى صلة بين أي تابع مخلص، وبقية زملائه من الأتباع الآخرين الذين يتولون حماية كرامته.. ظل أسرع واحد في العالم يصالح أصدقائه بعد خصامهم، ناجحاً في تثبيت جسده عند أقدامهم.. حافظ على وضعيته المثالية كحارس وفي يوفر لهم الغذاء اليومي من الاحترام، والود، والطيبة الخاضعة.. هكذا وصلت به الدنيا إلى أن يؤدي بوجهه في المرآة حركات غريبة، ويغني ما يخطر على ذهنه من أغاني معروفة، مستبدلاً كلماتها الأصلية بألفاظ وعبارات تتخطى الحدود المتخيلة للبذاءة.

لكنه في ذلك المساء البعيد تجمّدت ملامحه على نحو مباغت، وصمتت أغنيته في منتصفها، وشعر أن هذه اللذة السرية لابد أن تكون حياته كلها.. ينبغي أن يتعمّد تحويلها إلى فعل تلقائي، مهيمن، ومتواصل.. قرر أن آخر

الحلول التي يمكنه اختبارها هو أن يقود نفسه نحو الجنون التقليدي بحيث يصبح واحداً من هؤلاء الذين يُضحكون الناس، أو يثيرون الشفقة، وفي الغالب لا يمكن تحمّل العيش برفقتهم.. كان ذهنه يتمعن في ذلك الاحتمال الذي يفترض اختفاء الذاكرة، وبالتالي تنقية الجسد من الألم والرعب، وتحويل الموت إلى مجرد خطوة داخل المرح دون وعي بأنها الأخيرة.. كل الوجوه بلا استثناء أصبحت منذ ذلك الحين مرايا، يؤدي حركاته الغريبة فيها، ويغني أمامها ما يخطر على ذهنه من أغاني معروفة، مستبدلاً كلماتها الأصلية بألفاظ وعبارات تتخطى الحدود المتخيلة للبذاءة.

مرت أيام وشهور وسنوات دون أن يصل إلى مرحلة الجنون التقليدي.. لم يقف الفشل عند ذلك الحد، بل أن كافة البشر الذين اعتمد عليهم في إثبات جنونه بعد تحويل حركات وجهه وأغانيه إلى أفعال تلقائية، مهيمنة، ومتواصلة لم يضحكوا، ولم يشعروا بالشفقة، والأفظع أن تحمّلهم للعيش برفقته لم يصبيه الضعف.. بقيت ذاكرته حادة الوضوح ، وظل جسده يواصل الزحف تحت ثقل الألم والرعب، وبالتأكيد ازداد رسوخ الوعي بأن الموت خطوة ساطعة خارج المرح.. بالأمس، وقبل أن يغمض عينيه للنوم قرأ أن (روبن وليامز) شنق نفسه بحزام البنطلون.. أزال صورته من خلفية اللاب، وقرر أن يعيد حركات الوجه، والأغاني المرتجلة إلى الخفاء.

(5) الفريند ليست

إلى د. إمام عبد الفتاح إمام

في أحد الأيام التي أراد (سرن كيركجور) الخروج فيها من البيت، وكالعادة أخذه أبوه عوضاً عن ذلك إلى الغرفة، وأمسك بيده الصغيرة ليسيرا داخلها جيئة وذهاباً كأنهما في الشارع، وبينما كانا يحييان المارة، ويتجنبان العربات، ويستمعان إلى الضوضاء المتخيلة؛ أوقف (كيركجور) أباه، وقال له:

(انظر يا أبي إلى الجالسين على طاولة هذا المقهى.. إنني أعرفهم جيداً.. سيعود كل واحد منهم إلى منزله الليلة بحصيلة مشبعة من الصور التي تعطي للقائهم الأمان.. تراهم في هذه اللحظة يتكلمون ويضحكون، لكنني أؤكد لك أنهم يفكرون أيضاً في اللذة التي تنتظرهم عند تحويل الأمان إلى نوع خبيث من الخلود بعد نشر الصور على فيسبوك.. لا أصدق يا أبي أن الهلاوس القديمة لازالت تضيء تحت جلودهم، وتحرضهم على تلك الكوميديا الرديئة.. اختر أي واحد من هؤلاء، وسأحدد لك بدقة أين تقع العاهة المستديمة التي زرعها صديق ما في روحه.. بعض من تلك الجروح غير القابلة للمحو اقتفيت آثارها، والبعض الآخر أرشدني إليها أصحابها بكرمٍ أعمى، وهناك ما عثرت عليه صدفة كهدايا ثمينة يستحقها برغوث مثلي يتغذّى على الشماتة.. لماذا يستمرون في إعادة المشهد، ثم توثيقه كأنه سياج

ناعم من التوقعات الصائبة رغم الإصبع الوسطى المنتصبة في كل خلفية، التي لا أحد يعرف صاحبها، ولكن يمكن رؤيتها بوضوح؟ّ!.. لماذا لا يفترقون للأبد، ويلزم كل منهم بيته، على الأقل حتى يحرمونني من مطاردة دموعهم وتخزينها، ثم انتهاز الفرص لوضعها في مؤخراتهم وهم نائمون؟!.. قل لهم يا أبي أن يتوقفوا عن ادعاء السحر).

انتبه (كيركيجور) فجأة إلى أن يده الصغيرة صارت معلقة في الفراغ.. كان أبوه قد اختفى من الحجرة فخرج يبحث عنه في كل الأماكن، ولكنه لم يجده حتى الآن.

(6) القيمة الروحية

قالت له إن الصبّارة في بلكونتها التي يملأها التراب تحتاج إصيصاً أكبر ينقذها؛ فالإصيص الصغير صار أضيق مما يلزمها لتستمر في النمو.. لم تنس أن تخبره أيضاً بأنها تشعر تجاه الصبّارة بالشفقة؛ فبالرغم من أن جذورها حفرت منذ وقت طويل شروخاً بائسة داخل جدار الإصيص، ثم اخترقته لتستنجد حضناً أوسع من الطين إلا أنها لم تمت حتى الآن: (الصبّارة تريد أن تواصل الحياة).

شعر بغرابة خبيثة مما ذكرته عن اختراق الجذور لجدار الإصيص؛ إذ بدا له أن أي جذور مهما كانت قوتها لا يمكنها أن تثقب إصيصاً بصرف النظر عن مدى ضعفه.. كان عليه أن يرى بعينيه كي يضع حداً للشك في صدق كلامها.. خرج إلى البلكونة فوجد الإصيص قد تحوّل إلى ثلاث قطع متباعدة، تحاول الإبقاء على التصاقها بقاعدته الدائرية الصغيرة.. كان هناك قرص طيني متحجر يبدو أنه حُرم الماء منذ زمن بعيد يقبع بين القطع الثلاث.. كانت الصبّارة تخرج من جوفه منتصبة بتجهم طفل، بينما جذورها تظهر من الشقوق الواسعة أكثر امتداداً بالفعل مما يمكن لذلك القدر البسيط من الطين استيعابه.. مستقبل الإصيص المكسور تجلى أمامه في تلك اللحظة؛ فالقطع الثلاث الواهنة على وشك الانفصال عن قاعدته

الدائرية الصغيرة، وربما سيؤدي ارتماؤها على الأرض إلى تهشمها.. المسافة ليست عالية، والأنقاض الضئيلة لذلك لن تتناثر أبعد من إمكانية لمها وتجميعها لتحاوط القرص الطيني المتحجر حتى لو لم يكن في ذلك أي فائدة.. فكر في أنها محقة.

هي عجوز تعيش وحيدة مع صور موتاها وذكرياتها السوداء، ولو أن من طلبت منه البحث عن إصيص كبير كان كاتباً عادياً لاشتغلت على الفور ماكينته الرمزية، وأنتجت فكرة قصة قصيرة تتباهى دلالتها بأن الصبّارة هي العجوز نفسها، وأن الإصيص الضيق هو العالم.. ربما سيتذكر ـ ككاتب عادي ـ أن الصبّار نبات وثيق الصلة بالقبور فيكتشف مجازاً جديداً لقصته يفسّر تمسّك الصبّارة بالحياة بتحوّل بيت العجوز إلى مدفن.. لكنه انتبه إلى مؤذن الجامع المجاور يقول عبر الميكروفون: (يا جماعة إحنا لقينا كيس فيه بانجو، ياريت إللي وقع منه الكيس ييجي ياخده).. لاحظ أن العجوز كانت مشغولة بشيء آخر منعها من التركيز مع ما قاله المؤذن.. كانت تبكي في صمت، وهي تتابع حواراً قاسياً على شاشة التليفزيون بين مذيعة، وأمٍ لطفلٍ قُتل بعد اغتصابه.. كان للمذيعة ثديان كبيران، وللأم وجه شهواني، ولو كان لقاءهما قد تم في ظروف أخرى لأصبح من الرائع توحد جسميهما العاريين في سرير.. كان يفكر في أنه لا توجد مناسبة أفضل من تلك التي تجمعهما الآن.. سألتها المذيعة في نهاية الحوار عما تريده من الرئيس القادم؛ فأجابت الأم وهي تنتحب: (أنا مش طالبة غير حاجة واحدة بس، إنه يرخّص الأسعار شوية).

قال للعجوز أنه يومياً يحكي لابنته قبل نومها حكاية الساحرة الشريرة التي تخطف كل ليلة طفلة جديدة بعد أن تنام، وتأخذها إلى سجن مخيف تحت الأرض لتعذبها: (أتوقع كل ليلة أن تستيقظ ابنتي مرعوبة من وصول الساحرة إليها.. أنتظر منها أن تصرخ، أو تبكي، أو على الأقل تنتفض قليلاً دون أن تستيقظ، لكنها للأسف تنام نوماً عميقاً متواصلاً كقتيلة صغيرة).

بدا كأن العجوز قد توصلّت إلى حل للمشكلة: (لا ترهق نفسك بالبحث عن إصيص كبير.. يمكنني استخدام دلو بلاستيكي واسع كالذي استعمله في غسيل الملابس.. بالنسبة للطين أعتقد أنهم في مديرية الزراعة يعرفون أين ذهب المشتل الذي كان موجوداً على النيل منذ عدة سنوات، يمكنني الحصول على تليفون المديرية من الدليل، وسيخبرني أحد الموظفين بمكان المشتل.. حتماً بمقدورك أن تتفهم أنني لن أطيق الانتظار حتى مرور السيارة نصف نقل التي يبيع سائقها النباتات لأشتري منه الطين.. هل تصدّق أنني لم أره يعبر من الشارع منذ اشتريت منه هذه الصبّارة، لقد مرت فترة طويلة جداً.. ربما لم يعد يستطيع مغادرة سريره نتيجة مرض خطير، بل أغلب الظن أنه مات.. تعرف.. سيكون من الأسهل لو انتزعت الصبّارة من الإصيص المشروخ، ونظفتها جيداً ثم قطّعتها، وضربتها في الخلاط.. أنا أعرف أن الصبّار مفيد جداً لعلاج تساقط الشعر.. طبعاً ستقول لي أن شعر رأسي لا يتساقط بل لا يزال سليماً وقوياً.. من قال لك أنني أقصد شعر رأسي؟!).

(7) دراسة عن العمليات الانتحارية

بلكونة جاري واسعة جداً.. أي أنها لا تستوعب فحسب كثيراً من الأنواع المختلفة للنباتات المتنافسة في مسابقة جمال لازمنية . البلكونات الواسعة تحوّل الوفرة الخضراء إلى أمر مفروغ منه . وإنما أيضاً تسمح لجاري ولزوجته ولأبنائه، ذوي الأعمار المتباينة بالوقوف جميعاً داخلها في وقت واحد.. بكيفية مبهمة تمرر البلكونة الواسعة يقيناً لا تعوزه الصحة الجيدة بأن كثرة أبناء جاري لم تكن سبباً في خلق تعاسة أو ندم.. إنهم من نوعية البشر الذين لا يتوقفون أبداُ عن تصدير احتفالهم بالحياة.. يعطونك الحق في تخيل أنه لو اتصل بهم أحد تليفونيا فإن جاري سيرد قائلا: (آلو.. أنا سعيد جداُ.. مين معايا؟).. عندما تُنزل زوجته (السَبَت) إلى بائع البصل في الشارع؛ تبدو كأنها تقول له: (إوزن لي سبعة كيلو عشان أنا فرحانة أوي).. لو وقع صغير من أبنائهم على السلم، وجُرحت ركبته؛ سيصرخ باكيا: (إلحقيني يا ماما، بس أنا لسه مبسوط).

ربما هناك جدة تقف معهم كذلك.. لا يمكن لبلكونة واسعة بهذا الشكل أن تنتمي إلى أسرة لا يوجد بها جدة.. نفس الأمر ينطبق على القطة.. لابد أن لديهم أيضاً قطة شيرازي كبيرة، كسولة وكوميدية كطفل غافل؛ رغم أنني لم أرها أبداً.. زوجة جاري تشبه امرأة فرنسية لم تغادر مصر منذ عشرين

سنة.. قد تعتقد للوهلة الأولى أن ملامحها هي السجل المكلف بتوثيق تلك الملحوظة، لكن عليك الانتظار حتى يتمدد بصرك بالشكل الملائم أسفل وجهها.. ستساعدك على هذا حتماً الثلاث موجات الكبيرة، المتلاصقة، التي تشكّل سقف البلكونة الواسعة.. كأنها أُنتزعت من بحر قديم عبرته أسطورة غامضة، ثم تناقلتها الأماكن والأزمان حتى تم تحنيطها في النهاية خصيصاً لتعمل كمظلة هادئة، ممتنة عند أسرة جاري.. ثلاث موجات يستكين داخل تجويف كل واحدة منها (سبوت) يعزف ضوءاً مختلفاً.. لهذا.. عندما يجلس جاري وأسرته داخل البلكونة ـ نعم هي واسعة لدرجة أن بمقدورهم وضع طاولتين، وكل ما يكفيهم من الكراسي ـ تستمتع أجسادهم بثلاثة أنواع من التدليك الناعم للإضاءة الخفيفة الحمراء والزرقاء والصفراء.. موسيقى لونية متداخلة بانسجام لا تتوقف عند حدودهم الخارجية بل تسري في دمائهم، وعلى وشك أن تسحرهم إلى طيور ربما.. حينئذ، يمكن لأي منهم في لحظة صمت مطمئن، وبينما يعوم بصره داخل الفراغ الحريري المكلف بحمايته أن يفكر بعينيه المرتخيتين في أن البلكونة أوسع حقاً مما كان يعتقد.

هل تصدق أنهم قادورن على وضع تليفزيون بها أيضاً؟!.. بالفعل يمكنك أن ترى جاري خارجاً وهو يحمله بفرح من أحد بابي البلكونة اللذين تم تصميمهما على شكل مدخلي كوخ؛ وبذلك حصلت حياتهم على نشوة إضافية من الذاكرة الفردوسية للريف الانجليزي.. ما العجيب إذن في أن يأكلوا ويشربوا ويتبادلوا الأحاديث الصاخبة، الممتزجة، التي يفردون بها ملاءة شاسعة من الهواء الشخصي لتغطي الغيب.. ضحكاتهم الأقرب إلى

قهقهات الآلهة أمام قنوات الأفلام والأغاني والدراما.. يشاهدون أيضاً (وائل الابراشي) في (العاشرة مساءا) لأن لديهم اهتمام طبيعي بالسياسة، ولأن البلكونة الواسعة يستطيعون من خلالها السيطرة على العالم.. جاري يشاهد مباريات كرة القدم، ويلتهم السجائر بشياكة أمام (مدحت شلبي) و(شوبير)، وهو للعلم لن يصاب بأي من أمراض التدخين.. البلكونة الواسعة ستصد عنه ذلك الخطر.. يستقبلون ضيوفاً أحياناً.. تأتي إليهم أسرة أو أكثر، يشبهونهم جداً، وبطريقة لا تثير الغرابة.. مهما كان عدد الزائرين فالبلكونة تتسع للجميع.. لجاري ولأسرته ولعائلته ولعائلة زوجته ولأصدقائه حيث تدل كثرتهم على أنهم مكتملون؛ لا ينقصهم أحد، الموت لم ينتبه إليهم بعد.. كأن البلكونة تتمدد كلما زاد الحاضرون فيها، وكأن أضواءها الثلاث تزداد نعومة.. هي في الواقع أشبه بلوحة إعلانية ضخمة، ساطعة، معلّقة في السماء عن قرية سياحية في كوكب آخر.

ربما جاري يمتلك شركة في مكان ما بالمدينة، وربما يذهب إليها في المساء.. غالباً تقع هذه الشركة في دورٍ عالٍ جداً داخل برج، ولديها شبابيك عدة.. شبابيك زجاجية مهيبة، حينما ينظر إليها من عمارة بعيدة للغاية شخص ما عبر نافذة حمامه وهو يتبوّل مثلا؛ سيراها الوحيدة من شبابيك البرج التي يخرج النور منها.. النور الأصفر الذي يبدو في ظلام الليل كدليلٍ على اللذة.. إشارة للتناغم مع الدنيا.. سيتساءل في نفسه ذلك الذي يتبوّل من يوجد هناك.. لابد أن وراء تلك الشبابيك الزجاجية مخلوقات خرافية تتحكم في المجرّة، أو أطفالاً يحاولون كشف أسرار الكون.. لابد أن هناك رجالا ونساءً عرايا، ينامون مع بعضهم طوال الوقت، ويطلبون طعاماً دليفري

طوال الوقت، ويتبادلون الحقائق غير القابلة للشك أثناء الفرجة على القنوات الإخبارية طوال الوقت.. يفكرون دائماً في بلكوناتهم الواسعة التي تشبه بلكونة جاري، ولا ينقصهم سوى ألعاب نارية ترافق كل خطوة لهم.

من المؤكد أن جاري ليس محتجزاً حتى الآن داخل المرحلة القضيبية؛ بحيث أنه يضع يده تحت ملابسه، ويمسك عضوه معظم اليوم.. من المؤكد أيضاً أنه لا يسجّل جيصه بالموبايل ثم يرسله عبر الواتس إلى زوجته، ولا يحاول تعليم طفلة من بناته الشخر.. لا أحتاج طبعاً للقول بأن بلكونة جاري واضحة جداً، ويمكن الوصول إليها بمنتهى السهولة، وأن الذي قام بتفجير مديرية الأمن أعمى تماماً.

(8) موزة كاملة في الفم
إلى زوجةٍ قديمة لصديقٍ جديد

أعرف أنكِ لا تشترين الجرائد أو المجلات . بشكلٍ عام لم أعد أنشر في الصحافة الورقية إلا نادراً؛ ذلك الوضع المريح إذن لا يتطلب معالجة.. بإمكانكِ أيضاً إغماض عينيكِ على الفور إذا ما تلقّف بصركِ كرة لهب مفاجئة عند مصادفة كتاب لي فوق رف مكتبة ما.. أعلم أن ذلك سيكون غاية في الصعوبة، وأغلب الظن أنكِ ستحتاجين عندئذٍ لأخٍ في البشرية تستندين على شهامته؛ فينقذكِ من السقوط.. سيتوجب عليكِ الخروج من بين الرفوف المكدسة بسرعة اختفاء فأر من أمام متجر السموم.. بالتأكيد ستحتاجين وقتاً طويلاً لإزالة ذلك الورم المؤلم في ذاكرتكِ الذي سيخلقه عنوان الكتاب، بينما سيحرص الغلاف على تركه متخماً بكل ما يلزم من الكائنات غير الرحيمة.. على أي حال هذا أقل ضرراً من المعاناة البالغة التي كانت أعصابكِ ستعيشها، لو قررتِ الاستسلام لرغبتكِ المذلة في العودة بالكتاب إلى البيت، وقراءته.. أنتِ تعلمين جيداً أن معاناة كهذه سيتحول معها تخيل الجحيم إلى نزهة ذهنية، وأنها لن تنتهي مطلقاً في يوم وليلة.. بالنسبة للفيسبوك ليس أمامكِ سوى مغادرته في أقرب وقت، دون مجرد التفكير في العودة.. ذلك لن يمثّل تجربة جديدة؛ فلاشك أنكِ تتذكرين النص

الذي نشرته منذ عام تقريباً، وتسبب عدم قدرتكِ على تحمّله في إغلاق صفحتكِ لشهور طويلة.. ماذا أفعل لكِ أكثر من هذا؟!.. هذا كل ما في حوذتي الآن من إرشادات وقائية للحفاظ على ما تبقى من عقلكِ، وبالتأكيد إذا ما توصلت إلى طرق إضافية فلن أتردد في إبلاغكِ بها.. ليس من المعقول حقاً أن تقضي عمركِ كله خاضعة للتعاسة كلما قرأتِ نصاً أو مقالاً لي.. من لديه الطاقة الخرافية لمواصلة العيش بتلك الوتيرة القاسية والمخجلة، أو التكيّف مع مرضٍ مزمن يجبركِ دائماً على إيقاظ المتسوّل النائم في روحكِ.. الشحاذ الذي ينهض كل مرة مترنحاً ومتذمراً، مُشكّلاً قبضته المقطوعة في هيئة ميكروفون خيالي كي يصرخ بداخله: (بالطبع "كافكا" كتب أفضل منه.. هل يُعقل أنه أكثر خبثاً من "سيوران" مثلاً.. مستحيل أن يكون أفضل من "كافكا".. على الأقل لن يمكنه تخطي "سيوران".. بالتأكيد "كافكا" أفضل منه.. سيظل أقل خبثاً من "سيوران".. من أجل خاطري، ومراعاةً لظروفي؛ لابد أن "كافكا" قد كتب أفضل منه).

لكنك ستستمرين حتى الموت في الاتصال بي، وطلب لقائي.. لن يهدأ أبداً احتياجك الوحشي لرؤية ملامحي، وسماع صوتي وأنا أُجيب على استفسارتك المنهكة والبائسة عن ماذا أكتب، وكيف أكتب.. التلذذ بأظافر ابتسامتي المغروسة في يأسكِ، وأنا أعطيكِ نسخة موقعة من كتابي الجديد.. الـ (بلو جوب) الذي استبدلتِ به رغماً عنكِ أمنيتكِ المكشوفة في الاستسلام، والتخلي عن الـ (ديلدو) الذي أهديته لكِ منذ اللحظة التي بدأتِ تكتبين فيها.

(9) رسم النار

في المقهى أعطاني خطابها الجديد مكللاً كالعادة بهالةٍ يائسة من اللعنات على الصداقة، وبسب دين الأشياء الثلاث التي لدى الصاحب عند صاحبه.. منذ زمن طويل والضحكة الواثقة السعيدة التي أستقبل بها الخطابات تفقد قوتها المتباهية بالتدريج.. تحوّلت الآن إلى مجرد ابتسامة شاحبة، قلقة، تقاوم فقدان الأمل، أو تتوسل له أن يكون رحيماً.. بعد الانتهاءِ من قراءة الخطاب تنسحب عينيّ نحو الداخل مثل كل مرة لتفحّص الوحشة التي قادني إليها التراجع خطوة جديدة إلى الخلف.. كأن حركة قدميّ للأمام التي حدثت ذات يوم، أصبح الآن ينتمي إلى ما قبل بداية التاريخ، كي أخطو مع صديقي إلى شقة زوجها الملحن الأعمى؛ كانت تلك الحركة هي آخر فعل تطور أؤديه في حياتي.. صديقي صاحب الصوت الجميل، الذي اقترح أن أحضر معه إحدى جلسات التدريب الأسبوعية على الغناء.. طوال الطريق إلى المنطقة الشعبية التي يسكنها الملحن الأعمى، وخلال اللحظات القليلة التي استغرقها صعود السلالم نحو باب شقته ظل يرجوني ويحذرني من مجرد النظر إلى زوجته الريفية التي تصغره بعشرين سنة.. بدرجة تتعدى معرفتي باسمي، ونتيجة تكراره الممل، الخانق حفظت أنها امرأة محترمة جداً، وأن زوجها أعمى، ولكن إحساسه أقوى من ألف عين.. لم

تكن تضع مكياجاً، وهذا ساعدني كثيراً على الاكتشاف الفوري للتفاصيل النقية لوجهها الشهواني، الذي تتحكم في سحره عينان مبتسمتان، ترشدان بخبث من يواجه نظرتهما إلى ما أسفل رقبتها.. جسم حافل بالامتلاءات البارعة، المكتومة داخل جلباب صوف بيتي، اخترقتني سخونته التي تعزل لحمها الخمري، الناعم عن برودة الطقس بينما أمر بجوارها خلف صاحبي نحو حجرة الصالون.. أعتصر مؤخرتها بعينيّ، وهي تعبر أمام الباب المفتوح، ثم أبتسم للمطرب الواعد، الذي استمرت نظراته في استعطافي بعدما اضطر لسانه للبقاء داخل فمه.. أردت أن أعبّر له عن تفاؤلي همساً بعد الترحيب الدافئ الذي استقبلتنا به، والنغمة الحنونة في صوتها حينما قالت: (أهلاً وسهلاً.. اتفضلوا) لكن الملحن الأعمى دخل الحجرة.. لم يبدو في بداية الخمسينيات مثلما قال صاحبي.. ربما ساعده على الظهور بعمرٍ أقل الصبغة الواضحة التي لوّنت شعر رأسه بسواد محكم، تتناسق شدة قتامته مع سواد النظارة المسنودة على خديه السمينين.. كان على قدرٍ من البدانة، لدرجة أن جسده بدا مضغوطاً داخل بيجامته الكستور البيضاء، والتي بدت متآلفة تماماً مع العُود الذي دخل إلينا وهو في يده.. صافحنا بودٍ بالغ، وخصّني بحفاوة أكبر تقديراً وامتناناً لزيارتي الأولى.

كان الجو بارداً فعلاً، وهذا ما يفسر الشال الوردي الثقيل الذي وضعتيه حول كتفيكِ قبل أن تدخلي حاملة صينية الشاي.. أنتِ لم تقصدي تغطية ثدييكِ الكبيرين، البارزين من تحت الجلباب الصوف بالطرفين العريضين المنسدلين للشال.. لو كنتِ تقصدين ذلك لوضعتِ الشال قبل أن تفتحي لنا الباب.. تأكد لي هذا من ابتسامتكِ، ومن النظرة الخاطفة لعينيكِ في

عينيّ وأنتِ تضعين الصينية على الطاولة أمامي.. الإيشارب السماوي الفائض بالزهور، الذي منعني من التعرّف على لون شعركِ، وكنتِ تعقدينه بطريقة الأمهات القديمات تحت الذقن جعلني أوقن من معلومة صديقي بأنكِ لم تنجبي حتى الآن.. لا أعرف لماذا زاد حاجباكِ الكثيفَينِ من هياجي، لكنني أعرف أنكِ لم تبتعدي كثيراً عن باب الصالون المفتوح.. أعرف أن أذنيكِ ظلتا قريبتين، تتابعان كلامنا؛ حيث كان صاحبي يتولى مهمة توطيد التعارف بيني وبين زوجكِ، قبل أن يتركنا نحاول إقامة الممرات الممكنة بين القصة القصيرة والموسيقى العربية.

نعم يا صديقي، لازالت تريدنا أن نستمر في تبادل الرسائل الغرامية كطالبَين في ثانوي، وتطلب مني أن أصبر.. في كل مرة تقول لي ذلك لا يبقى الحال كما هو، بل ينسحب الإيمان بتحقيق الوعد إلى الوراء.. نحن في الثلاثينيات، ولم تعد لدي القدرة على مواصلة الكتابة باللغة العاطفية للمراهقين، ولا حتى قراءتها طمعاً في لحظة النوم معها، والتي أكدت لي مراراً أنها قادمة.. لكن حياتي لم تعد تخضع سوى للشك المتزايد في الوصول إلى تلك اللحظة.. أشعر أنها تستعملني وحسب يا صاحبي.

كان التمرين اليوم على (أمانة عليك) لـ (كارم محمود).. كأن صديقي وزوجها يحتفلان دون قصد بلقاءنا الأول.. صاحبي يغني، والملحن يعزف ويصحح له، وأنا متلذذ بتخيلها جالسة في الحجرة الملاصقة، تنصت إلى الأغنية بمزاجٍ رائقٍ، وتفكر بشغف في الزائر الغامض، الذي التقطت حاستها الأنثوية فوراً ارتباكه الحاد، وهو يحاول أن يواري شهوته.. كان الملحن الأعمى يقتطع فترات قصيرة، متباعدة من التمرين للراحة، والتحدث في أمور

أخرى غير الموسيقى.. كان مهذباً، وخفيف الدم، ولحركة ملامحه وشفتيه هيئة (عمار الشريعي)، وكان يوجّه رأسه ناحية من يكلّمه كأنه يراه فعلاً.. حاولت أن أرفع وجهي كي أنظر إليها.. كانت واقفة عند باب الشقة الذي مدت يدها لتفتحه حينما انتهى التمرين، وبعدما صافحت أنا وصديقي زوجها.. أوقف الخجل رأسي قبل أن تصل إلى هدفها، فتسمّرت عينيّ لبرهة ضئيلة أمام ثدييها، وهكذا وصلت الرسالة الصحيحة رغماً عني.. ما أعطى دعماً للرسالة، التلاحق المتخبّط للحروف التي قلت بها: (سلامو عليكو) قبل أن أخرج وراء صاحبي.

لم يكن عندي مشكلة أن تأخذي الوقت الذي تحتاجينه كي تحكي لي كل شيء مثلما أردتِ.. بالعكس كان هذا يفرحني حقاً.. أبوك الميت، وأمك الفلاحة الفقيرة، التي ليس لديها سواكِ.. نظرات الحب الصامتة التي لم تتحوّل إلى حكايات بينكِ وبين أولاد وشباب القرية.. الأقارب المتباعدون، الذين لا يثير لفظ (العائلة) أي شعور لديهم.. هواية رسم النار.. زوجك السابق الذي طلّقك لأنك لم تنجبي، ثم الملحن الأعمى الذي تعملين عنده في صورة زوجة كخادمة وسكرتيرة، وعصا بشرية داخل الأماكن الغريبة.. الصفقة العادلة بين عقيمة فقيرة في أواخر العشرينيات، وأعمى في أواخر الأربعينيات، لا يريد أطفالاً.. لكن لماذا كل هذا الإصرار الذي لا يحتمل التفاوض على حرماننا حتى الآن من جعل السرير سجلاً لتوثيق تلك المعرفة.. لماذا كان شرطك الوحيد الذي أغلقتِ كافة إمكانيات المناقشة من حوله هو الاستمرار في تمرير الماضي عبر خطابات منزوعة الشبق، ومتوهجة فحسب برومانسية الأبيض والأسود.. طال الوقت، وصار

الأمر سخيفاً، وقضيبي لم يعد يصدق أن قصة الغرام المختلقة هذه ستُنهي تشرده.

هل تذكر يا صديقي رسالتها الأولى التي أعطتها لك في يوم لم أحضر فيه للاستماع إلى التمرين.. كدت تصرخ من الفزع، لكنك لم تنطق بكلمة حتى أسرعت بقراءتها في الشارع بعد اجتيازك بيتها بخطوات.. عرفت أن الخطاب لي، وأنك بدءاً من اليوم لن تكون مغنياً فقط بل ستصبح ساعي بريد أيضاً.. الرسالة التي شرحت وحددت فيها كل شيء بدقة: إدراكها لرغبتي في جسمها.. موافقتها أن تنام معي، ولكن بعد تنفيذ شرطها المجنون الذي لم تحدد مدة لانتهائه.. ضرورة عدم المجيء مرة أخرى لحضور التمرين معك، وأن تظل العلاقة في حدود تبادل الخطابات من خلالك.. أعرف أنك كرهت الغناء، وكرهت العالم بسببنا.. لكن لا تنكر.. هناك جزء في داخلك يستمتع بالفيلم، بتلك المشاركة الجوهرية في أحداثه حتى وإن صارت مثيرة للضجر ولا تتغير.. أنت مثلي تريد أن تعرف ماذا ستكون النهاية.

لم أعد أتذكر كم مرة حضرت فيها.. لكنني أعرف جيداً أنني لم أنقطع بعد المرة الأولى، بل واظبت على المجيء من أجلها.. كل أسبوع كنت أعشّم نفسي بحدوث تقدّم يتجاوز نظرات الرغبة الخاطفة، وتعمّد ارتداء الجلاليب الضيقة، والابتسامات الصغيرة، المبتورة، التي بدت مع تكراراها لا تعني شيئاً مُهماً يرضي طموحي.. أستمع لأغاني أم كلثوم من صاحبي على أنغام عُود زوجها الأعمى، وأستمتع بشرحه للتلحين التعبيري عند عبد الوهاب، المتأثر بسيد درويش، وأتمنى لو فهمت وحدها بأنني لست جريئاً بما يكفي للقيام بالمبادرة، وأن عليها أن تنتهز أي فرصة حتى تتجاوب مع عينيّ لو أرادت..

المرة الأولى التي لم أحضرها، ربما نتيجة الإحباط؛ عاد صديقي من التمرين حاملاً خطابها الأول.

لو رأيتِ مدى سعادتي الآن لتأكدتِ من أن الفترة الماضية لم تكن بالنسبة لي سوى ظلم وقهر.. لو عرفتِ قدر فرحي بقراءة رسالتكِ هذه، التي تبلغني كلماتها بأنها الأخيرة، وبأنكِ الآن أصبحتِ جاهزة لتحقيق الحلم الذي انتظرته كثيراً لأدركتِ أن جسمكِ صار أغلى شيء في حياتي.. سأكتب لكِ في خطابي الأخير ترتيبات حضورك إليه.. صدقيني لن ينام من الآن، وسيظل واقفاً حتى تأتي لتأخذيه في حضنك.

لا تكتم دموعك يا صاحبي.. الدموع نهاية منطقية لانتهاء عمل ساعي البريد، ونقطة الختام اللائقة بقصص الحب ـ حتى لو كانت مختلقة ـ التي تنتهي بالموت.. ما بالك لو انتهت بحريق لن يُعرف سببه أبداً، حوّل جسد زوجة الملحن الأعمى إلى رماد قبل أن ألمسه.. زوجها الذي لو لم يكن يسجّل برنامجاً إذاعياً في ماسبيرو في نفس الوقت ما اشتعلت النار في بيته.. كتمان الدموع نهاية منطقية أيضاً يا صديقي.. هل توجد قصة حب لا تنتهي بالموت أصلاً.. رفضت استلام رسالتي الأخيرة، وطلبت منك دون كلمة واحدة أن تبلغني بأنها توقفت عن رسم النار.

(10) دخول المرآة

بدأ الأمر حينما قرر الاستجابة للفكرة التي تمنى أن تضع حداً لمعاناته.. كان ذهنه قد تحوّل منذ مدة طويلة إلى جثةٍ تعاند كل محاولات إعادتها للحياة.. وصل إلى اللحظة التي فرضت عليه تغيير الأماكن التي تعوّد الكتابة فيها.. خرج من بين حوائط بيته، وودّع طاولات المقاهي، وكنب الحدائق، ثم اتجه إلى المكتبة.. جلس وسط الرفوف الكثيرة، العالية، المتخمة بالكتب ليحاول استعادة الكتابة.. "على الأقل سيكون قريباً من المصادر والمراجع التي قد يحتاجها " قال لنفسه.. مرت ساعات وأيام وأسابيع تمسّك خلالها بالصبر متوسلاً الشفاء.. كأنه يدرك أن ما يجرّبه الأن هو آخر الحلول الممكنة، حيث لا يوجد بعده أي وسيلة للنجاة بل خضوع تام لليأس.. بعد شهور لم تتوقف خلالها سلة المهملات بالمكتبة عن الامتلاء بأوراقه المكرمشة؛ اشترى رواية لفت عنوانها انتباهه.. كانت صدمته هائلة وصفحاتها تتوالى تحت عينيه.. وجد الكلمات المبعثرة، والسطور الناقصة، والفقرات غير الكاملة التي ألقاها طوال الفترة الماضية في سلة المهملات بالمكتبة قد تحوّلت إلى رواية، وما زاد الاكتشاف قسوة أنها أعجبته جداً.. لم يكن يعرف الكاتب الذي قرأ اسمه على الغلاف.. بحث على الانترنت، واتصل بدار النشر؛ فتأكد من أنه موظف بالمكتبة التي قضى الشهور الأخيرة

يحاول الكتابة بين رفوفها.. حسم تفكيره المتوتر، الذي ظل يمضغ أعصابه المحترقة طويلاً بحقيقة أنه لا يملك دليلاً على انتماء الرواية إليه بشكل أو بآخر.. ما الذي يثبت أن موظف المكتبة واظب على جمع الأوراق المكرمشة التي كان يلقيها في سلة المهملات خلال تلك المدة، وأنه بطريقة ما نجح في استغلالها لكتابة رواية جيدة.. تخيل نفسه يذهب مدفوعاً بغضبه العظيم وحسرته البالغة إلى موظف المكتبة ويقول له:

(الأخ الذي يقتلك الندم بعد موته، لأنك لم تصادقه بالدرجة التي تحميه من الموت ليس أخاك.. الأصدقاء الذي يعذّبك عدم حصولك على دلائل تؤكد نجاح انتقامك منهم ليسوا أصدقائك.. الأشباح العديدون الذي لكلٍ منهم وظيفة محددة لا يعيشون، ولا يتكاثرون بداخلك.. لست أنت من فشل في تعطيل رغبته في الدنيا، وفي العيش كمتشرد.. أنا الذي أريد أن أكتب (هايكو) أبطاله (فوكو)، و(كافكا)، و(أونجاريتي)، و(أمبرتو إيكو)، و(ثلاثي أضواء المسرح).. ملاحظات الكتابة عن سلطة الجمل القصيرة ليست مدونة في دفترك.. الأسانيد والمبررات التي تقف وراء دفاعك عن ضرورة الكسل لا تخصّك، بل أنا الذي خلقتها)...

تخيل الملامح المتشفية، والابتسامة الساخرة ثم الصمت الواثق للتجاهل الذي سيحرّك رأس موظف المكتبة بعيداً كي يُكمل عمله في هدوء.. تصور أن المكتبة ستظلم حينئذ، وأن أضواءا ساطعة ستتوهج وتتراقص فجأة لتحاصره من كل الاتجاهات، ثم يمطر السقف بالونات وقصاصات ملونة على إيقاع موسيقي متهكم.. يلتف حول ذهوله جميع موظفي المكتبة، والقراء الذين كان يجلسون منذ لحظات، وأشخاص آخرون ربما يعرف

بعضهم.. يصفقون، ويضحكون كما يليق بالكشف عن خدعة قاسية أو فخٍ محكم نجح في اصطياده.

كان يعرف أنه مهما فعل فلن يصدقه أحد.. إما أن يرضى رغماً عنه بالأمر الواقع، أو ينتظر التوصل إلى عقاب مناسب لموظف المكتبة بعيداً عن محاولات إقناع العالم بأن الرواية مسروقة منه.. لن يجلب السعي لذلك سوى قتامة أزيد لحياته البائسة.. الحياة التي لن تتحمل ـ خاصة بعد ما آلت إليه مؤخراً ـ أن تمزقها وتضيّعها تماماً حكايات البشر عن الإدعاءات الكاذبة لكاتب لم يعد لديه ـ بعدما فقد القدرة على الكتابة ـ سوى الأوهام.

لكن في نفس الوقت كان التفكير في الرضوخ لما حدث، أو الانتقام من موظف المكتبة، وكذلك النتائج العدائية المتوقعة لشرح حقيقة الرواية لم يكن أكثر ما يحفر جروحاً غائرة في داخله، وإنما التساؤل المميت عن الكيفية التي تمكن موظف المكتبة بواسطتها من استخدام تلك الحصيلة من الأشلاء في كتابة رواية كهذه.. يعرف ـ وهو ما كان يعمّق من تعاسته الثقيلة ـ أن ما تركه في الأوراق المكرمشة داخل سلة المهملات لم يكن كافياً وحده، وإنما كان يحتاج لعمل.. تدخّل بارع يشيّد التفاصيل، والأحداث، وينظّم السرد على نحوٍ ملهم كما فعل موظف المكتبة.. أي مهانة إضافية ينتظره الغرق فيها لو توجه إليه ـ متصنّعاً الود ـ كي يسأله.. ثم أن مشكلته الأساسية لا زالت كما هي.. عجزه عن الكتابة يزداد رسوخاً وبلادة فوق صدره.. جدران عمياء تواصل تقليص الفراغ وسحق عظامه من كل جانب، كأن تابوتاً أصغر من حجم جسده يُغلق عليه.. لم يفشل في استعادة الكتابة فحسب، وإنما أذلته في بُعدها بمنح نفسها كهديةٍ ممتنة لواحدٍ آخر.

داخل مكتبة أخرى، وبعد أن أمضى ساعات طويلة بين رفوفها، سأل نفسه: لماذا لم يقطّع الأوراق التي تركها في سلة مهملات المكتبة، والتي ـ بهذا الشكل ـ ساعدت الموظف على كتابة روايته.. لماذا تركها مكرمشة فقط.. فشل في العثور على الإجابة وهو ينهض من مكانه.. تحرك نحو الباب بتمهل يسمح لابتسامته أن تصل كاملة وواضحة للموظف الجالس، قبل أن يخرج تاركاً كثير من الأوراق المكرمشة في سلة المهملات.

(11) أجنحة البركان

لا أستطيع أن أطلق على ما حدث اليوم أنه أكثر الأمور الغريبة التي واجهتها في حياتي؛ بل ينبغي عليّ القول أنه نزع. بلا ألم ودون نقطة دماء واحدة. هيبة الغرابة عن كل ما اعتبرته حدثا مستحقا للتعجب والاندهاش.. خلال لحظات قليلة بدت متلاحقة رغم تباعدها؛ كافة المواقف المبهمة التي عشتها في الماضي، بل والغموض الذي جرّبه الآخرون أحيانا وأتيح لي معرفة حكاياته أو الاقتراب منها بحذر؛ صار كل ذلك الركام مجرد تفاصيل عادية، مملة، جديرة بحياة مستوعبة رغم كل شيء.. اليوم تعطّل العالم الذي كان دائما يفسد مفاجآته بإخفاء ساذج لإمكانيات تفسير يسهل كشفها، أو لقابلية فهم سيُعثر عليها رغم العتمة الحصينة التي نلعب داخلها.. لم أكن أعرف عندما استيقظت بعد ظهر اليوم، واكتشفت عدم وجود زوجتي وطفلتي في البيت أن الزمن الذي يتواطئ فيه الوهم والغفلة لحل مشكلاتنا مع المجهول، وتأدية وظيفة اليقين اللازم للاستمرار في دفع الحياة لأسفل قد انتهى وبدأ زمن آخر.. قالت في التليفون أنها لن تعود بعدما عرفت إلى أي مدى تبلغ كراهيتي لها، وأن ما يجبرني على تحمل العيش معها هي ابنتي.

لم يحدث شيء بيننا أمس.. حتى دخولنا السرير ظل كل منا كاتما جحيمه داخل معدة فأر ميت مكوّم تحت أنقاض مدينة غارقة.. لم نتشاجر ولم

نضحك ولم نجرّب إنقاذ طفولتنا بممارسة الجنس.. قالت أنها عرفت فقط، ورفضت أن تبلغني بمصدر تلك المعرفة.. أغلقت الهاتف في وجهها بعد صرخات تقليدية، مهددة بعقابها على أخذ طفلتي.. كيف لا أكرهها.. لو كانت أجمل امرأة في الكون، وتعوّدت سنوات طويلة أن تعذبك بناء على حلم أو كابوس، أو وفقا لخاطر ظل يؤرقها طوال الليل، أو نامت واستيقظت وهو لا يزال يأكل رأسها؛ فإن أفضل لحظات عمرك تلك التي ستتخيل فيها حياتك بعد قتلها.. نوبة جديدة معتادة يتكرر فيها كل شيء بدقة إعجازية: تنشغل فجأة وعلى نحو أكثر حدة بالأمنيات الخبيثة للمراهقة التي لم تتجسد في الواقع، مستعيدة مشاهد وانفعالات منتقاة من الماضي لتفوز في النهاية بالنتيجة المؤهلة لكسر الملل.. الابتعاد عن البيت والصراخ في التليفون ثم الشجار بعد أيام من إدعاء القدرة على عدم العودة استعدادا لتنفيذ الخطوات الشكلية لرجوعها.. عتاب متبادل يتعمد كل مرة الإخفاء أكثر بكثير مما يرغب في المصارحة.. التخلي عن ثبات الموقف بتدرّج وتجهم للحفاظ الكوميدي على الكرامة.. كلمات قصيرة، مقتضبة بالحياد المائع الضروري لاسترداد مكانينا في معدة الفأر الميت.

فتحت الفيسبوك.. وجدت صفحة ساخرة أنشأها البعض، وأطلقوا من خلالها حملة لإعطائي أكبر كم من (اللايك) على أي شيء أكتبه أو أنشره.. (علمنا أنه حزين وغاضب للغاية لأنه لا يحصل سوى على "لايكات" قليلة جدا ونادرة.. أنه يتألم بشدة لأن "نجوم الفيسبوك" بحسب تعبيره لا يقدرون على ملاحقة "اللايكات" التي تتدفق وتنهمر عليهم مهما كان ما كتبوه أو نشروه عاديا أو تافها أو ثقيل الدم.. نحن مجموعة من

المتطوعين الرحماء الذين لا يرضينا أن يتعذب أخ لنا دون أن نمد له أيادي الشفقة والعون.. أطلقنا هذه الحملة وكلنا أمل في الاستجابة.. لا تبخل بال (لايك) على أخيك المسكين).

عندما أغلقت صفحة الفيسبوك أمس قبل دقائق قليلة من نومي لم يكن هناك شيئا.. انتبهت لتكرار نفس الكلمات التي استخدمتها في التفكير والبحث عن سبب لما فعلته زوجتي هذا الصباح.. لم ألتقط من قريب أو بعيد أي إشارة تُظهر توقعاً لذلك الجدار الصلب الذي برز فجأة من الفراغ كي يتسبب ارتطامي العنيف به في تكسير عظامي كلها.. من أين علموا.. معلومتهم صحيحة مثلما كانت معلومة زوجتي عن كراهيتي لها صحيحة أيضا.. كيف نجحوا في الوصول إلى ذلك التعبير الذي أستخدمه فقط في الملاحظات الشخصية التي أدوّنها: (نجوم الفيسبوك).. طبيعتي الهشة، المهيأة طوال الوقت للخضوع إلى أي فزع طارىء بدأت في تحفيز جسدي على الاستسلام لأعراضه: دوخة، ضيق في التنفس، دقات قلب سريعة.. لهجة زوجتي وهي تؤكد تصميمها على عدم العودة.. التزايد اللحظي المستمر ببشاعة لأعداد المشتركين في الصفحة الساخرة، والجروح التي تتناسل بفضل تعليقاتهم.. الرسائل و(اللايكات) استمتاعا بالحفل الذي جاء كفرصة ينبغي أن يتحالف الظرفاء المتعبون لإنجاحها.. كل ما تصورته غير قابل للفهم منذ لحظة ميلادي بدأ ينزف، يمعن في الشحوب والتهاوي احتراما وتبجيلا لما يفترسني اليوم بتعاقب جليدي.

سمعت فجأة أطفال المدرسة المجاورة لبيتي يغنون أغنيتهم اليومية التي أكرهها.. هذه المرة سقط في صدري ثقل غير طبيعي، مضغوطا بتصميم

مريب في حناجرهم.. شعرت أنهم لا يمرون فحسب ككل يوم بعد خروجهم من المدرسة.. وقفت في الشباك.. رأيتهم واقفين كأنهم في رحلة متخمة بالشغف، وينظرون لأعلي باتجاهي.. توقف الغناء بسبب الضحك العاصف الذي تسبب فيه ظهوري ثم عاد متحولا إلى هتاف حربي لضمان حرق الأغنية لكل حيز تحت جلدي.

رن جرس الباب.. جاري في الشقة السفلية تغيرت ملامحه الطيبة إلى ملامح ممثل في فيلم رعب.. قال أنه كان يظنني رجلا محترما، ولكن بعدما عرف تفكيري في زوجته فإن عليه تحذيري من توجيه كلمة أو نظرة إليها على السلالم حتى تنتهي مدة الإيجار ويهرب بها بعيدا عن الشيطان.

رن التليفون.. صديقي بصوت يدّعي الحزن، يعتذر لي بسخرية لأنه لم يكن يعرف أنني أعيش كل هذه المعاناة التي يسببها عدم قدرتي على مواجهة الدعابات المتهكمة بردود فورية، ذكية وأشد عنفا.. قال والضحك يقطّع قلبه أن عليّ الاطمئنان، لأنه يعدني ـ وبمنتهى الإخلاص ـ بعدم توجيه أي انتقاد ساخر لي بعد الآن.. طبعا لم يكن يقصد أي كلمة.. لم أرد على صديقي وأغلقت الهاتف، مثلما لم أرد على جاري وأغلقت الباب دون أن أسأل.. لن يجيبني أحد كيف عرف.. إذا كانت المتاهة البديعة قد بدأت بهذا الشكل فلا ينبغي لها أن تنتهي سريعا وبطريقة سهلة.. يجب أن أظل صامتا وعاريا تماما أمام أبواب السعادة التي فُتحت من حولي.

في هذه اللحظة انتحرت جميع القصص الملغزة التي رضخت لحلول، أو تلك التي لا زالت تقاومها حتى الآن.. تلاشت رتابة الدنيا ووضوحها الغبي،

وبدأت دنيا جديدة غريبة بحق.. الغرابة التي توقف الزمن وتبدّل الكائنات وتحرم العالم من طبيعته المألوفة وتعطيه لعنة جديدة، مغايرة تماما.

مثلما عرفت زوجتي كراهيتي لها، وعرف مشتركو الفيسبوك حزني من قلة وندرة (اللايكات) التي أحصل عليها مقارنة بنجومه، عرف أيضا أطفال المدرسة المجاورة أن الأغنية التي تعوّدوا غناءها بعد خروجهم تغضبني، وعرف جاري أنني أحب جسد زوجته، وعرف صديقي أن عجزي عن الرد الفوري على الدعابات المتهكمة يؤلمني بقوة.. كأن شخصا فتح خزانة أسراري في الخفاء، وأخذ وقته كاملا في الاطلاع على محتوياتها ثم بمنتهى الهدوء والإتقان قام بتوزيعها على كل من يهمه الأمر.. شخص يمكنه الاستمتاع بتخيلي الآن مثبتا، ومقيدا وسط حصار من أذى متنوع سيواصل تجلياته الفاتنة.. لا زالت هناك أسرار لم تصلني نتائج كشفها بعد، وربما يضحك في هذه اللحظة كما لم يضحك أحد من قبل وهو يفكر في ترقبي الرائع لها.

لم يكن من العسير حصر مخابىء الملاحظات المفضوحة؛ فهي مدونة في دفتر صغير داخل درج مغلق بالمفتاح، لا يمكن أن تمتد إليه يد أحد حتى زوجتي.. لو فُرض؛ فإنها لا تعرف شيئا عن الفيسبوك، ولن تقود معركة أطفال المدرسة ضدي، ولن تتحدث مع جاري عن مشاعري تجاه جسد زوجته، كما أنها لن تتصل بصديقي وتبلغه بمعلومة لا تهمها بل ولن تفهمها أصلا.. توجد أيضا نسخة مخفية على اللاب توب ومحمية بكلمة سر غير مكتوبة في أي مكان.. لو فُرض أن أحدا تمكن من الوصول إليها عبر برنامج تجسس أو ما شابه فإنه لا يعرف أرقام تليفونات زوجتي وجاري وصديقي ولا يعرف أي مدرسة أكره غناء أطفالها.. لكن بعد تفكير تذكرت

ما سيمثل خيطا يمكن تتبعه للخروج من حفرة الأعاجيب التي أُغلقت عليّ اليوم.. نسخة ثالثة كانت محفوظة في موبايل قديم اضطررت لبيعه منذ أسبوع.. تذكرت أنني تكاسلت عن مسح ما عليه من أرقام ورسائل وملاحظات، وما أعطى كسلي دعما عدم توقعي لأي استفادة يمكن أن يكسبها من يصل إليه الموبايل من أرقام لا يعرف أصحابها، ورسائل عادية ليس فيها ما يثير الاهتمام، وملاحظات سيحرص على التخلص منها فورا تحت وطأة الغيظ من الفشل في استيعابها.. لكنني تذكرت أيضا أنني طلبت من صاحب محل الموبايلات أن يمسح ما عليه قبل بيعه لأي زبون كإجراء وقائي يجب أن يخرج من بين شفتي دون سند من اهتمام فعلي بتنفيذه.

أصبح لدي ترتيب منطقي من الاحتمالات النشطة لشرح روعة حياتي الجديدة، والتي حتما لم أتوقف ثانية واحدة عن التوسل لها كي تختفي: لم يهتم صاحب محل الموبايلات بمسح الأرقام والرسائل والملاحظات.. باع الموبايل لشخص عرف كل شيء.. أرسل رسالة لزوجتي صباح اليوم، أو اتصل بها وقرأ ما كتبته عن كراهيتي لها.. دخل على قائمة أصدقائي على الفيسبوك بعد التعرف عليها من صفحات الانترنت المحفوظة مثلا، وأرسل لكل واحد فيها نص المكتوب في الموبايل عن حزني تجاه قلة وندرة (اللايكات).. وقف عند باب المدرسة . ربما توصل إليها بعد حيلة ما، أو تتبع غاية في الدقة، أو بواسطة اتصاله بأرقام عشوائية.. ربما ادعى أنه عثر على الموبايل، ويريد بيانات صاحبه ليعيده إليه.. دلّه أصحاب الأرقام على عنواني ثم أبلغ الأطفال عن غضبي من أغنيتهم، وحرّضهم على غنائها بقوة تحت شباكي.. اتصل بجاري وأبلغه عن هوسي بجسد زوجته، وكذلك فعل

مع صديقي وقرأ له ما كتبته عن آلام عدم قدرتي على الرد على الدعابات المتهكمة.. كانت بين يديه كل الذخيرة المطلوبة: الأسرار، وأسماء الأشخاص الذين تتعلق بهم، وأرقام التليفونات التي بواسطتها سيمررها إليهم.

لكن من يكلف نفسه بذل كل هذا الجهد، وتخصيص وقت من عمره لاتخاذ القرار ووضع الخطة وتنفيذها بإرادة حاسمة إلى هذه الدرجة لابد أن يكون شخصا يعرفني.. أو أنه لا يعرفني ولكنه ـ لسوء حظي الساحر ـ يمضي حياته في انتظار هدايا كهذه لينتقم حتى ممن لا يعرفهم.. في جميع الأحوال كان لابد أن أخرج لأذهب إلى صاحب محل الموبايلات.. فكرت أنني لو كنت أمتلك أدوات وملابس تنكرية لاستعملتها قبل نزولي حتى لا يعرفني أحد.. لماذا لا يكون صاحب محل الموبايلات نفسه هو من فعل هذا؟.

"مات منذ أسبوع"...

أصررت أن أعرف اليوم بالضبط من صاحب المحل المجاور له.. كان نفس اليوم الذي بعت له الموبايل فيه.. أصررت أيضا أن أعرف الوقت.. كانت نفس الساعة التي كنت فيها عنده.. بحسب المعلومات التي توفرت لي فإنه مات داخل المحل بشكل مفاجىء.. ربما وأنا على بُعد خطوات بعدما تركته.. ليس هو إذن، كما أنه من الواضح عدم وجود زمن كاف يسمح له ببيع الموبايل.. هل أخذه شخص ما من المحل ساعة الموت أو بعدها، أم أنه أعطاه لواحد من أصدقائه أو جيرانه في الشارع، أو حتى من أسرته تصادف وجوده قريبا في اللحظات القليلة الخاطفة، الفاصلة بين شرائه الموبايل مني

وموته.. تحولت الحقيقة. بعدما اقتربت من التشكّل كزهرة في اليد. إلى ظل غائم، يتفكك ويبعد بغلظة وعماء.

رجعت البيت.. كل الظروف والعوامل مناسبة تماما لأن تتخيل. كما تعوّدت في ذروة الاختناقات وعند التورط في مآزق محكمة. السيناريوهات الممكنة لهروبك.. ماذا سيحدث لو أخذت أقل ما يلزمك، وتركت كل شيء وراءك دون أن تخبر أحدا؟.. كيف سيمكنك أن تبدأ حياة جديدة في مكان بعيد، وهل ستجبرك. لو استطعت أن تعيشها. على الشك في أنك قمت بالتصرف الصحيح؟.

لم أكن أبحث عن شيء حينما أمسكت بالمفتاح الصغير ثم بتلقائية متماسكة فتحت درج المكتب الذي كنت أحتفظ داخله بالموبايل القديم قبل بيعه.. وجدت الموبايل.. راقدا في سكينة بينما استيقظت كل الأرقام والرسائل والملاحظات التي لا تزال بداخله حين فتحته.. كيف يتسق وجوده مع تأكدي من بيعه للرجل الذي كنت أقف أمام محله منذ قليل، وعرفت أنه مات؟!.. نظرت إلى شاشة اللاب توب.. كانت صفحة الحملة الساخرة لازالت مفتوحة وتواصل رواجها الهيستيري.. لم يجد القائمون على إدراتها صورة مناسبة لها أفضل من تلك التي نشروها حالا.. صورتي وأنا أكتب جرافيتي على أحد حوائط المدينة.. لم يكن مهماً أن أدقق في الصورة لأعرف ما الذي كنت أكتبه.

(12) الميت

جلس يشاهد صور الجنازة التي عاد منها.. ولد صغير متجهم، يراقب موتاً جديداً بعينين خائفتين.. انتصاب عضوه واضحاً جداً من بنطلونه الرياضي.. امرأة تبكي، ملامحها تدل على صراخٍ أيضاً.. لاشك أنها نظرت في المرآة قبل أن تخرج إلى المدافن.. بالتأكيد عرفت أن بلوزتها السوداء الضيقة تبرز ثدييها الكبيرين، وتزيد من جمالهما.. أدخل يده تحت ملابسه، واستمنى عليهما ثم حفظ الصورة في فولدر العائلة.. وضع صورة الولد الصغير في فولدر الصور الشخصية ثم أغلق القبر.

(13) الحجرة التي بجوار محل سليمان الصايغ

كنّاس البلدية الذي يلم زبالة الشارع، ويحضر لنا التموين من الجمعية التعاونية كل شهر، وأحيانا يشتري العيش والبقالة والخضار والجرائد مقابل فلوس من أبي وبقايا طعام وملابس قديمة من أمي؛ يأتي بإبنته المراهقة من البلد إلى بيتنا يوم في الأسبوع للغسيل والمسح والتنظيف.. يوم واحد يتدفق بفضله نهر من المني تحت ملابسي، وفي فتحة الكابنيه بقية الأسبوع.. لم تكن تنظر لي، ولا لأي أحد.. تؤدي عملها باستسلام وعبوس صامت، مرتدية جلبابها الريفي الضيق، بعد أن تخلع من فوقه جلباب الخروج عند باب الشقة مع شبشبها المهترئ.. أمر أمامها بحذر على فترات متباعدة كي لا ترصد عيون أمي معلمة الابتدائي، وشقيقتي العانس موظفة الحسابات حركتي المتوسلة.. أسرق من سمارها الناري، وامتلاءاتها المنحوتة بقسوة بقدر ما تسمح به اللحظات الخاطفة لأختزن وقود لذتي السرية القادمة.. لم أسمعها في المرة الوحيدة التي تكلمت فيها.. خرجت في الصباح الباكر قبل حضورها، ورجعت بعد انصرافها.. ما الذي يضحك (ريا وسكينة) أو أمي وأختي إلى هذه الدرجة؟!.. عثرت ابنة الكنّاس وهي ترتب سريري على صورة حبيبتي أسفل الوسادة.. قالت أمي أنها ضحكت بسخرية وكانت ضحكتها جميلة، وقالت شقيقتي أنها مصمصت شفتيها، وتهكمت على

نحافة حبيبتي وشحوب وجهها.. بالتأكيد كانت فرصة رائعة لهما لتوجيه إهانة جديدة لي ولو عبر وسيط غائب.. هربت من ضحكاتهما المتشفية وتعليقاتهما المنتقمة.. الآن أصبحت ابنة الكنّاس بالنسبة لكما أكثر من مجرد خادمة مؤقتة بأجر؟!.

أمام أبي وأمي وشقيقتي؛ جلس الكنّاس في الصالة بجوار باب الشقة حيث اعتادت ابنته أن تترك جلبابها وشبشبها.. وضع كفيه على وجهه ليغطي دموعه، بينما صوت نحيبه المرتعش يقاوم رغبته الضعيفة في الكتمان.. كان صعبا عليه بالطبع هروب ابنته مع أحد شباب القرية وعدم وجود أثر لهما.. كنت ممددا على السرير في حجرتي، أتحسس عضوي، وأستمع إلى حكاية الكنّاس وابنته من وراء الباب المغلق.. مع ارتفاع نبرة الألم في صوته، والصدمة في أصوات أهلي ازداد استمتاعاً.

(14) رهاب اللمس

لكن هناك مشكلة صغيرة يا عزيزتي؛ أنا بعت سيارتي الـ (ريتمو) الجميلة، ولو أنه حدث غير مؤثر لأنني لا أعرف القيادة أصلا.. هذا ليس مجازا يا عزيزتي: أنا فعلا لا أعرف قيادة السيارات.. بالنسبة لأغنية (محمد فؤاد): (حبيبي يا) بالطبع أستطيع أن أطلب من سائق التاكسي تشغيلها من موبايلي، لكننا في هذه الحالة سنكون أمام احتمالين: إما أنه سيرفض، وبالتالي ستفقد اللحظة عنصرا مهماً من سحرها، وإما أنه سيوافق وسيكون ذلك دافعا له للتدخل في حلمنا المتحقق ولو حتى بعينيه عبر المرآة ونحن جالسان خلفه.. لا يمكنني السماح بذلك أبدا يا عزيزتي.. أقول لكِ: أفضل حل أن نأخذها مشياً من محطة الأتوبيس إلى بيتي.. المشي سيكون جميلا في حالتنا.. لكن للأسف نسيت أن أخبركِ بأنني أصبحت منذ فترة أشعر بضعف شديد كلما تحركت في الشارع خطوات قليلة.. يصيبني إرهاق حاد ورعشة وعرق؛ الأمر الذي جعلني لا أخرج من البيت إلا نادرا ولمشاوير قصيرة أركب من أجلها التاكسي.. مع كامل اعتذاري: أنتِ آتية من بيروت إلى القاهرة إلى المنصورة؛ لن يكون صعبا لو أعطيتكِ عنوان بيتي وجئتِ لي وحدكِ لتكملي جميلكِ.. أنا أعرف أن هذا غير لائق، ويمثل إذلالا بشعا للصورة التي رسمناها طوال السنوات الطويلة عبر الانترنت عن لقاءنا الأول،

ولكن ماذا نفعل؟!.. إنها الظروف يا عزيزتي.. أخذتيني في الكلام ولم أحك لكِ عن بواب العمارة التي أسكنها وزوجته وأولاده والجيران: عالم ولاد وسخة قاعدين للطالع والنازل، وبالتأكيد سينتهزون وجودكِ لإشعال فضيحة في الشارع.. لن تستطيعي المرور بينهم أبدا يا عزيزتي.. ثم بصراحة أنا لا أجد مبررا لشرح العوائق وتقديم الأعذار.. لماذا لا تبقين مكانكِ داخل لوحة (وليام جون هينسي)، وتواصلين عزف الأغنية القديمة؟.. صدقيني هذا أفضل لنا.

(15) اقتفاء الأثر

لم يجدوا فوق حوائط بيته صورا لأمواته تحديدا.. كانت الصور عبارة عن لقطات مكبرة لـ (الحسنة السوداء الصغيرة في ذقن أمه)، (الأنف الكبير لأبيه)، (عيني أخته المنطفئتين)، (الشعر الخفيف لمقدمة رأس أخيه)، (إصبعي أخيه الآخر وهما تمسكان بسيجارة).. بجوار السرير الذي مات عليه وجدوه قد ترك صورته لمن أراد الاحتفاظ بها.. كانت لقطة مكبرة للخطوط العميقة المتشابكة، المحفورة داخل مؤخرة عنقه.

(16) الليالي

في شارعي، وأمام المقهى، قابلت غريبا لم أعد أتذكر ملامحه.. كان على علم برغبتي في اللعب؛ فطلب مني الضغط بإصبعي على نقطة في الأسفلت بين قدميّ.. نزل أفيش (ليالي الحلمية) إثر الضغطة من حافة سطح الفرن على بعد خطوات قليلة ليغطي جزءا كبيرا من واجهته.. أشار الغريب نحو الأفيش كي أنزعه وأحتفظ به.. صعدت على سلم غير مرئي وبدأت في خلعه، لكنني فوجئت بأساور وسلاسل بدوية تُرمى على ظهري فالتفت لأجد (شاهين) يدير رأسه فوراً نحو الجهة الأخرى مدعياً أنه ليس من رماها.. نزلت له، وأمسكت به ثم بدأت أضربه بقوة وهو يترنح ويقسم منكرا التهمة.. أدركت من صوته وملامحه أنه تحت تأثير المخدرات فقررت التوقف عن ضربه، لكنه فاجأني بالارتماء على الأرض مغميا عليه.. لم تكن أرض الشارع وإنما أرض بيت أسرتي في الثمانينيات حيث اقترن فزعي من إغمائه بإدراكي أن أبي وأمي وإخوتي ذهبوا إلى مشوار بعيد.. كيف يتركون طفلا صغيرا وحده خاصة في المساء.. أرحت رأس (شاهين) فوق وسادة، وغطيته بملاءة بيضاء وهو لا يزال على الأرض مغمض العينين، غارقاً في غيبوبة عميقة.. خرج عم (بدوي) مسرعاً من الحمام يصرخ ويبكي، لا يعرف كيف يتصرف؛ فالتفت إليه أسطى (زكريا) وكان جالساً يشاهد

التليفزيون المطفأ وقال أنه يجب علينا الاتصال بالاسعاف.. لا نعرف رقم الاسعاف.. سمعت زوجتي من حجرة الصالون تبلغنا بالرقم.. فتحت الباب ونظرت إليها.. ما الذي جاء بها الآن، وكيف دخلت.. كان وجودها مبكراً جداً، وغير منطقي، لكنني عرفت أن أسرتي ستتأخر في مشوارها، أو ربما لن تعود منه أبداً.

(17) جلد العاطل

فجأة توقفت عن هشها وبدأت أراقب طيرانها المتقطع، والتصاقها المتتابع بالمساحات العارية في جسدي.. وجدت نفسي أبتسم، وربما لأول مرة في حياتي شعرت بالتآلف معها.. الأكثر من ذلك أنني تمنيت لو سمحت لي بطبطبة رقيقة على جناحيها كي أمرر لها الحنان الذي يتملكني الآن.. دون أي مقدمات لم أعد أجد فرقا بينها وبين أي قطة أكثر من أن القطط تسمح لك بفرح وامتنان بالتعبير عن حبك لها.. هي الآن تتمسح بك وتناغشك مما سيدفعك للتفكير في الفرق بين عدم نظافتها وبين عدم نظافة كل قطة شوارع تركتها تحك جسدها بمتعة في حذائك، وفي طرفي بنطلونك وأنت جالس على رصيف مقهى أو مطعم.. كل قطة شوارع ملّست على جسمها الهزيل المتسخ، المقطّع بالجروح في بعض الأحيان.. المشكلة الآن في الكيفية المجهولة التي يمكنني بواسطتها أن أبلغها إدراكي للتحريض الذي ترسله لي، وأن لدي رغبة مماثلة في اللعب معها لكنني عاجز عن تحقيقها.. كيف أطمئن من أن أي فعل من جانبي بقصد اللعب لن تفهمه هي أنه بقصد إيذاءها.. عذرا عزيزتي.. مضطر لتركك تلعبين وحدك.. عن نفسي لم أعد غاضبا من إفسادك لمشاهدتي فيلم قصير عن يوم في حياة كاتب يعاني بطالة ذهنية، ويختبيء وراء كل عذر ممكن لتفادي مواجهة شاشة اللاب

الفارغة.. كنت أحاول جلب عزاء لنفسي، لكنني لا أفهم ما الذي جعلك تقفين على الشاشة الآن.. بالضبط فوق رأس الممثل الذي يؤدي دور الكاتب.. لم يحاول إبعادك وإنما أمسك بكتاب ضخم وضربك بقوة خاطفة لتسقطي ميتة.. تحسست رأسي بابتسامة مرتبكة، ثم بطرف إصبعي قذفت جثتك بعيدا مستمتعا براحة التخلص من عبء ثقيل.

(18) الحكايات الكبرى

جلست على الرصيف وفتحت اللاب.. رمى رجل الإطفاء خرطوم المياه من يده.. ترك النيران الهائلة، واخترق الزحام الكبير المحدّق برعب ليقف أمامي...

ـ بتتفرج على فيلم سكس؟

ـ لأ.. بلعب جيمز

ـ طب ماتفرجني على فيلم سكس

ـ ماشي

جلس بجانبي على الرصيف.. شاهد الأم (كاي باركر) تقاوم بهياج قبلات ابنها (مايك رينجر) قبل أن تترك جسمها لمشيئته.. بدأ الكل ينادي على رجل الإطفاء: زملاؤه.. المراقبون للنيران.. الموشكون على الاحتراق...

أغلقت اللاب، ومشيت مبتعدا.. ذهب إليهم (مايك رينجر) وأمسك بخرطوم المياه بينما اختفى رجل الإطفاء تماماً.

(19) البقع الحمراء الكبيرة

أقف في الشارع متوترا.. شيء ما يمنعني من عبور البوابة واجتياز السبع سلالم نحو شقتي.. يمر موكب كبير لقطط عملاقة تمتطي دراجات نارية، تلقي على الجانبين بمرح أكياس برازها فيتلقفها مشايخ وقساوسة ورهبان ويلتهمونها بخشوع.. أدخل شقتي حيث أخي الميت وأمي الميتة يقفان حزينين جدا.. أخي وأمي ميتان فعلا، ولكنهما أخذاني إلى المطبخ لإشراك أختي في حديثنا.. أختي لا تزال حية، رغم أنها بدت جاهزة للموت الآن أكثر من أي وقت مضى.. بكى أخي بالتدريج.. ازداد الحزن في وجهه ثقلا وحدة ثم ارتعشت ملامحه ودمعت عيناه، في النهاية بكى بقوة.. أفكر وأنا أتأمله في أنه الآن ميت ومع ذلك يبكي، وأن هذا عادي جدا لدرجة أن أمي الميتة لم تستغرب وهي تحاول مقاومة البكاء، كذلك أختي الحية بينما تواصل غسيل الأطباق بتجهم.. قال أخي أنه عاد مع أمي من عند الطبيب الذي أبدى انزعاجه الشديد من البقع الحمراء الكبيرة التي تملأ جسدها، وأنهم في انتظار نتيجة الفحص التي يبدو أنها ستحمل من أجلنا مصيبة بشعة.. صرخت على الفور في وجوههم باستنكار بالغ: لماذا تخافون؟.. البقع الحمراء الكبيرة تملأ جسدي منذ سنوات طويلة ولم يحدث لي شيء.

قلتها وأنا أخلع قميصي وأنزل بنطلوني لأريهم البقع الحمراء الكبيرة كي يطمئنوا.. جفّت دموعهم وارتسمت على وجوههم ابتسامات مرتاحة، شاكرة، تحولت إلى ضحكات فرح عظيم امتلأ بها فراغ المطبخ عن آخره.. خرج أخي ثم أنا تاركين أمي مع أختي تواصلان السعادة.. توجهت نحو باب الخروج لكنني طلبت من أخي الميت سيجارة فرمى لي اثنتين على الأرض.. كان مستعجلا، وأنا أخذت السيجارتين دون أن أظهر غضبي.. قلت في نفسي أنه ميت وله الحق أن يفعل ما يشاء.. خشيت أن أنظر له بعتاب فيتوقف عن أن يبدو حيا هكذا.

(20) الذهاب إلى هناك

أخذت السيارة البيجو 404 اللبني التي أحضرها لي أبي من السعودية في الثمانينيات داخل علبة ملونة عليها كلمات يابانية.. مشّيتها بيدي على الأسفلت طوال شارع البحر من وراء قصر الثقافة وحتى جامعة المنصورة.. بدأت المشوار صباحا وكان من الطبيعي أن ينتهي في الليل.. أمام بوابة الجامعة تجمع حشد هائل من الشباب صغير السن: الذين ينتظرون فتياتهم، والذين ينتظرون الفرص للتعرف على بنات جديدات، وجميعهم يحاولون إذابة الانتظار بحكايات متحدية، صاخبة عن بطولاتهم وطموحاتهم العاطفية.. وقفت بينهم أقلّب في ذاكرة الأسماء على الموبايل، وأمثّل إعطاء رنّات لفتاتي كي استعجل حضورها، رغم علمي أنها الآن تنتظرني داخل الجامعة تحت لافتة (كلية التجارة).. انتظرت حتى انتبه أكثر من شاب لي، وسمحت لأحدهم بتلصص مبتسم على شاشة موبايلي فبادلته ابتسامة الشركاء في الخبرة.. دخلت من البوابة حيث يواجهني طريقان: واحد يؤدي لحفلة كبيرة لا أعرف مناسبتها، لكن أصوات الموسيقى والغناء وهياج الجمهور تطاردني وأنا أسير في الطريق الآخر نحو شوارع الجامعة.. وجدت نفسي فجأة وسط سلالم وممرات المدرجات والأبنية الإدارية.. كل الحجرات متلاحمة وتؤدي إلى بعضها؛ منها المظلم تماما، ومنها المضاء بخفوت.. الحجرة الوحيدة ذات النور

القوي فيها مكتب يجلس وراءه شقيق صاحب محل الموبايلات على ناصية شارعي، كان يأكل ساندويتش كبدة.. نهض من مكانه على الفور ليصافحني بفرح ويقبّلني دون أن تلمس شفتاه خديَّ؛ لكنني أمسكت برأسه وقبّلته بقوة في فمه كي أثبت له أنني لست متقززا من آثار الكبدة.. لم أسأله ما الذي جاء به إلى الجامعة، وماذا يعمل هنا.. تركته معاودا رحلة صعود السلالم ونزولها، والمشي في الممرات المتشابكة، والدخول والخروج من أبواب الحجرات المتداخلة، وأنا لا أعرف متى سأصل إلى شوارع الجامعة الواسعة.. فجأة وجدت ابن عم خطيب شقيقتي السابق يقف أمامي صامتا، وملامحه الريفية ناعسة ومجهدة للغاية.. نظرته الجامدة تسألني أن أعطيه أي فلوس لكنني لم أهتم بمجرد التفكير في الأمر، وتركته لأجد نفسي نازلا لسلالم بيت قديم متهدم.. عرفت أنني صرت قريبا بعدما رأيت أضواءً شاحبة لشارع تلامس بتردد الحوائط والدرجات.. نظرت في الساعة؛ كان ميعادنا الثامنة والنصف والآن التاسعة إلا ربع.. هل حدث كل هذا في ربع ساعة فقط؟!.. خرجت إلى الشارع فوجدته حارة مظلمة إلا من نور ضعيف لمحل يبعد أمتار قليلة.. رأيت ابنتي وقد كبرت عشرين عاما تستقبلني بنظرة عتاب على تأخري.. وجدتها ترتدي فستاناً مثيرا، وشعرها مسترسلا برقة وتضع مكياجا ساحرا، وتحمل بين ذراعيها زوجتي النائمة، التي صغرت خمسة وثلاثين سنة.. ابتسمت لابنتي وتحسست الغطاء الذي يلف جسد زوجتي الصغير لأطمئن من ثقله حيث كان الجو بارداً جداً.

(21) خطوة وهمية أبعد

أكره صوت أبلة فضيلة.. كأنه غناء قنفذ برجوازي يقلّد حرفي عاطل.. لكنني مضطر لتحملّه كي أعيد للشيطان أدوات التنكر.. نصف النوم احتفال كامل لتاجر الأرامل بتكدس بضاعته في الملحمة.. لماذا لا أقابل واحدا حضر حفل (داليدا) في الاسكندرية.. ليس لأن هناك نظرية ما عن الحنين تنتظر شبحا يبررها، بل لأن هذا الأورجازم أراه عادلا فحسب.. على الأقل أستحق لمس صورة فوتوغرافية لبحار يطير كعبيط القرية في شارع خلفي.. بمناسبة الحفلات والحياة معدومة الشكوك.. في صحف الغد خبر عن اكتشاف شريط لحفلة نادرة أقامها فريق (ABBA) في حديقة مصرية قديمة فقط من أجل الطلاب وربات البيوت في السبعينيات.. بجواره خبر آخر عن تحويل الحديقة إلى محكمة أسرة ليسمع الموجودون داخلها ((mamma mia طوال الوقت، ويسيطرون جيداً على التعاسة.

(22) خزانة المشي

وأنتم تقتلون بعضكم؛ دعونا فقط نمر.. نحن الذين لا نخرج من بيوتنا إلا في مثل هذا اليوم من كل عام.. لم نكن نعرف أنكم تقتلون بعضكم، ومع ذلك لم نندهش.. نحن لن نضايقكم أو نعطلكم.. اسمحوا لنا فحسب أن نصل إلى مُصلح الأحذية العجوز الذي لا يفتح دكانه إلا في هذا اليوم أيضا من كل عام.. وصلتنا رسالتكم، وعرفنا أنكم غاضبون جدا، وأنكم تقتلون بعضكم منذ فترة طويلة.. نريد الآن أن يعبر كل منا بالحذاء القديم الذي يحمله في كيس.. حذاء لا يهم إذا كان قابلا للتصليح أم لا.. المهم أن صاحب الدكان ـ حينما نجلس حوله ـ سيعمل عليه بفرح، بينما يتناوب كل واحد وواحدة القراءة للآخرين من كتاب عن الأساطير المرتبطة بالأحذية، أو قصة يؤدي فيها حذاء بطولة ما، أو مرجعا ممتعا عن تاريخ صناعة الأحذية.. هذا ما نفعله في هذا اليوم من كل عام.. بالطبع يمكننا إدعاء التأثر، ومن السهل علينا تمثيل الرغبة في مساعدتكم على إنهاء المأساة، لكننا مشغولون للغاية، ولا نريد تضييع الوقت في أكاذيب تافهة.. وأنتم تقتلون بعضكم اخفضوا أصواتكم قليلا، كما أنه ليس من اللائق أبدا أن تتركوا النيران تمتد إلى الدكان.. سننهي الأمر سريعا هذه المرة ـ من أجل ظروفكم ـ ولا ننتظر منكم مقابلا أكثر من أن تتركونا نعود إلى بيوتنا.. لن

يفيدكم على الإطلاق أن يرجع أحدنا برصاصة في جسده . سيدعي صاحبها حتما أنها لا تخصه.. دعونا فقط نعود إلى بيوتنا، ونعدكم . حتى يأتي مثل هذا اليوم من العام القادم . بأننا لن نتذكركم.

(23) عضو واحد

وافقت أمي للمرة الأولى أن أستحم بنفسي، لكنها أصرت على البقاء معي في الحمام حتى ترشدني لما ينبغي أن أفعله كي تضمن حصولي على نظافة حقيقية.. وقفت أمامي واستمرت في توجيه يدي الممسكة بالليفة نحو أجزاء جسمي المختلفة:

. رقبتك.. تحت باطك.. السرة...

كان صوتها عاليا بما يسمح للجيران أن يسمعوها جيدا عبر شبابيكهم المجاورة لشباك الحمام رغم إغلاقه...

. إدعك تحت الحمامة كويس...

خفضت صوتها فعرفت أن أمي تدرك تماما أنني رجل، ولا يصح أن يسمع الجيران هذا التنبيه تحديدا.. كان يمكن أن أفرح لأن أمي تعتبرني كذلك لولا أن خفض صوتها جعلني أكثر يقينا بكوني عاريا أمامها.. كيف تصرين على إهانة رجل، والتعامل معه كطفل لا يستحق امتلاك حرية إخفاء عضوه عن الآخرين.. ألا يكفي أن ملامح الأطفال . لكونها صغيرة . تحوّل غضبهم المكتوم إلى مجرد استياء حقير، يباعد المسافة بين آلامهم وعيون الكبار.. لماذا لا يكون السبب الحقيقي لخفض صوتك يا أمي هو إحراجك من سماع الجيران لكِ وأنتِ تنطقين (الحمامة) حتى لو كانوا متأكدين أنك توجهين

حديثا لابنك.. ربما كانت أنوثتك لازالت تعمل، أو أنك أعدتِ تشغيلها بنفسك استغلالا للموقف كي لا تُحرمين من متعة الشعور بالخجل من سماع الناس لكِ باعتبارك امرأة.

خرجت إلى الشارع بعد الاستحمام لشراء (طعمية).. كنت أرتدي بيجاما جميلة على شكل بدلة كاراتيه، رغم آثار تجربة الحمام مع أمي منحتني البيجاما شعورا بالأناقة والقوة.. طفل أصغر مني يبدو من مظهره الانتماء إلى أسرة فقيرة مد يده فجأة أثناء مروره بجواري وأمسك عضوي...

ـ بتاعك عامل إيه يا كابتن؟

لم أتوقف.. واصلت المشي وقلبي يدق بسرعة شديدة بينما شعرت بتنميل في عضوي رغم أن مسك الطفل له كان خفيفا وخاطفا للغاية.. لم أجد سببا منطقيا لما فعله سوى أنه شبح كان موجودا معي أنا وأمي في الحمام ورأى ما حدث ويعرف جيدا كل ما فكرت فيه وما شعرت به وقتها، ثم جاء الوقت الذي يظهر فيه متجسدا لي في صورة طفل كي يسخر مني.. لو لم يكن شبحا، وكان الطفل مجرد مسكين صغير أراد الانتقام من حياته، وأن الأمر صدفة؛ فبالتأكيد كان بديهيا أن أصرخ في داخلي وأنا عائد بـ (الطعمية)، وطوال الليل في السرير بعد نوم الجميع: (ما الذي يريده الناس من حمامتي يا إلهي؟!).

* * *

في حجرة النجارة بالمدرسة الإعدادية كان زميلان في الفصل يجلسان أمامي وينظران أسفل طاولتي الدراسة.. كانت الإشارات والتعبيرات الصامتة بينهما تدل على اختلاف حاد في وجهتي نظرهما تجاه أمر يستحوذ على اهتمامهما البالغ، ولا يمكنني رؤيته من مكاني.. اقترب أحدهما من وجهي

وهمس:

. بص تحت واحكم إنت...

نظرت من تحت طاولتي فوجدت عضوين ممدودين أسفل طاولتي زميليّ المتلاصقتين.. كانت صدمتي عظيمة.. لكن غضبي من شعوري بالصدمة كان أكثر شراسة.. البنت فقط هي التي تُحطم أعصابها . وربما حياتها . عندما يحمّلها صبيان مسؤلية قياس عضويهما وتحديد أيهما أطول.. لماذا أشعر أنه تم اغتصابي إذن؟!.. كان رد الفعل الطبيعي هو أن أخرج عضوي وأطلب منهما النظر أسفل طاولتي حتى يقررا إلغاء المسابقة.. لكنني بدلا من ذلك سمحت لهما بالضحك على الذهول الذي توهج احمراره في وجهي قبل أن أهرب بعيدا عنهما.. ما زاد غضبي من نفسي هو أن جانبا أساسيا من الصدمة كان راجعا لتقززي من لون وشكل عضوَي زميلَيّ.. كانا عضوين أسودين نحيلين، يختلفان تماما عن عضوي الوردي الغليظ.. ما هو ذلك الشيء في داخلي الذي مارس على الفور تقييما لقبح العضوين دون سيطرة مني.. بماذا كنت سأشعر إذن لو كان للعضوين خصائص عكسية.. هل كانت الصدمة ستتحول إلى احتفال فرحا بجمالهما.

بعد سنوات أبيت مع أحد أصدقائي في شقته.. أثناء السهر والملل تخطر في بالي فكرة.. لماذا لا نتسابق في الاستمناء.. أشرح لصديقي: يدخل كل واحد يده تحت الشورت ويستمني.. الفائز هو من ينتهي أولا لأنه من السهل تأخير القذف في العادة السرية.. قبل أن تسأل؛ سيكون الدليل على الانتهاء قطرة أو أكثر من المني على أصابع المتسابق.. يرفض صديقي الفكرة ويذهب إلى الحمام.. يخبرني أنه سيغلق الباب على نفسه من الداخل حتى لا أفتحه عليه.. لماذا ظن صديقي أنني سأدخل الحمام وراءه بعدما اقترحت

فكرة المسابقة.. كان ذهني سعيدا حينما استقر في النهاية على أنني نجحت بكفاءة تامة في جعل صديقي خائفاً مني.

* * *

في حجرة الانتظار بعيادة دكتور الأمراض التناسلية أجلس متوترا، غاضبا ومرعوبا من تخيّل العينين اللتين تنتظران عضوي وراء الباب المغلق.. من اليد التي ستمسك بخصيتيّ وتضغط عليهما بقوة.. لا أعرف لماذا لا أتذكر الآن سوى مشهد مرت عليه سنوات كثيرة:

جاءتني إحدى نوبات الهلع من الموت حيث كنت أعالج عصبيا وقتها.. اللحظات التي تشعر فيها بيقين تام أنك ستموت الآن؛ فتنهار أعصابك وتنقطع أنفاسك ويداهمك دوار سافل، وتؤمن بأن قلبك على وشك التوقف.. اندفعت بعنف مذعور أمام أمي وأختي نحو ملابس الخروج بينما أخلع ملابس البيت مرتجفا.. كنت أصرخ فيهما كي تأخذاني إلى المستشفى حالا، وهما تحاولان تهدئتي، لكن النوبة كانت أقوى من قدرتي على الاستجابة لهما.. أصابعي المتشنجة وهي تخلع بنطلون البيجاما خلعت معه الكلوت فتوقف الزمن لجزء من الثانية.. جزء صامت تجمّد فيه العالم، رأيت خلاله عيون أمي وأختي تحدقان في عضوي بشفقة هائلة.. شفقة تخطت دون رحمة حد القلق والخوف من تزايد خطورة حالتي، ورأيت نفسي عبرها بوضوح ميتا بالضعف وقلة الحيلة.. لكن في عيني أختي رأيت شيئا خافتا، متلاحما مع الشفقة.. رأيت فضولا أقرب إلى الشغف.. بصرف النظر عن علاقة نظرتها تلك بطلبها لي بعد أكثر من عشر سنوات، وحينما صارت في منتصف الخمسينيات أن أحضر لها صورة لـ (عبد الفتاح السيسي) فإن كل ما كنت فيه انتهى.. تبخر يقين

الموت من ذهني واستسلمت أعصابي لارتخاء مباغت وعادت أنفاسي للانتظام وتخلص رأسي من الدوار وأصبح قلبي هادئا.. رفعت الكلوت والبنطلون بسرعة وأدرت رأسي بعيدا عن عيونهما.. عدت إلى حجرتي لأقفل بابها على المهانة الثقيلة التي أنقذتني من كشف معتاد لطبيب مستشفى حكومي كان سيبتسم وينصحني بعدم الإفراط في التفكير.

نادى الممرض اسمي فخطوت داخل حجرة الدكتور كأنني ذاهب لعملية (طهارة) ثانية.. كانت الحجرة أشد إضاءة وأكثر سكونا ورهبة كأنها مخدع إله.. بعد حوار قصير جاءت ذروة الجحيم.. انتقل الدكتور للجلوس على كرسي أقل ارتفاعاً، ونهضت لأقف أمامه وأصابعي المتيبسة تفك الحزام وأزرار البنطلون.. كان وضع Blowjob مثالي بيني وبين الدكتور لولا أنه أخذ براحة ضمير خالصة مكان (Kay parker)، و(Sarah Young)، و(Patricia Rhomberg)*.

لم يفارقني ـ حتى الآن ـ الشعور بأنها لم تكن يدا بل قفاز حديدي ذلك الذي قبض على خصيتي.. كف جليدي تكفلت عينا الدكتور بتأكيده وأنا أحاول أن أنتزع في صمت أي انطباع منهما خلاف تلك النظرة المحايدة الصلبة وهو يكتب الروشتة.. نظرة شرموطة سادية عمياء هي كل ما أراه في حياتي.

*نجمات بورنو كلاسيكيات

(24) تحريك الرصاصة

خلو الجسد من الأمراض العضوية يعني توفر احتمال الموت المفاجىء بقوة . من منا تفتقد ذاكرته نماذج من الأصحاء الذين ماتوا فجأة، ودون التعرض لحوادث.. بما أن الأمراض الخطيرة نتائجها متوقعة؛ لماذا لا يكون الحل إذن في تعمد الإصابة بمرض لا يقتل، ويمكن العيش به عمرا طويلا.. مرض لا يسمح بالإصابة بأمراض أخرى...

في 30 يونيو، وفي بيت عائلة زوجتي كان جميعهم يستعدون للخروج إلى المظاهرات.. وقفت انتظرهم بجوار عمها المشلول الذي يتابع الأحداث في التليفزيون.. نظرت إلى الشاشة وعلى ملامحي فرح عظيم.. التفت لعم زوجتي وأخبرته بأننا نعيش لحظات تاريخية نادرة، وأنه ليس هناك أروع من النزول إلى الشارع والمشاركة في الثورة.. رفع عم زوجتي رأسه إليّ بينما خرجت هي وابنتي وأمها وإخوانها وأولاد إخوانها حاملين أعلام مصر وتوجهوا إلى باب الشقة.. قبل خروجي ورائهم اقتربت من أذن عم زوجتي، وبينما أربت على قدمه المشلولة؛ نبّهت عليه أن يراقب الشاشة جيدا حيث يحتمل أن يرانا مع تغطية القنوات للميدان الذي سنتوجه إليه.

الحصول على مرض كهذا ليس هو الهدف طبعا.. أريد امتلاك تفكير عميق ودائم في مرض هيّن، يقضي على الانشغال المستمر والخانق بأن كل

لحظة أعيشها صالحة جدا لأن تكون حكاية تُروى عن آخر ما فعلته في حياتي، أو آخر ما حدث لي قبل الموت.. أصبحت كل اللحظات التي يمر بها البشر سبق لي معرفتها من آخرين قالوا أنها آخر ما عاشه موتى ينتمون إليهم أو سمعوا عنهم...

عند باب شقة أخي الميت منذ شهور قليلة؛ ودعت طفلته التي كبرت مائة عام بعد رحيله بقبلة.. أخبرتها وأنا أكتم دموعي بصعوبة بالغة بأنني كنت أتمنى أن أجلس معها مدة أطول لكنني وعدت ابنتي التي تصغرها بأنني سآخذها لنزهة رائعة وأشتري لها لعبا كثيرة لأن هذا هو دور الأب في الحياة: أن يجعل ابنته سعيدة.. ابتسمت في عيني ابنة أخي اللتين تحدقان في وجهي، وقلت لها قبل أن أنزل السلالم أنه لا شيء يعوّض الطفلة عن حب وحنان أبيها.

تكمن المشكلة في أن الأمراض البسيطة تستطيع أيضا إنهاء الحياة.. كما أنه لا يوجد مرض غير قابل للتطور حتى يتحول إلى داء مميت.. لا يوجد مرض قادر على احتكار جسد ما لنفسه بحيث يمنع الأمراض الأخرى من الوصول إليه...

أثناء المطر والبرد جلست أنا وصديقي داخل المقهى.. دخل إلينا صبي شاحب ومنهك يبيع مناديل ورقية، وقدميه الحافيتين غارقتين في الطين.. سأله صديقي عن حذائه فرد عليه بأنه سُرق.. مد الصبي يده بكيس مناديل إليّ فأخذته، وبينما وضعت يدي في جيبي لأخرج ثمنه قلت لصديقي بأنني أصبحت أشعر بالملل تجاه الحذاء الذي أرتديه الآن رغم جمال شكله وغلو ثمنه، وأنني ربما أشتري واحدا جديدا اليوم وأُلقي هذا الذي أرتديه الآن في

القمامة.

لا أفكر في فقدان كلي للذاكرة بل التحكم في النسيان.. حيازته . لو كان ذلك ممكنا . لن تحمي من المرض أو الموت بل ستجعلني على الأقل أضحك طوال الوقت.. معجزة أن تنسى شيئا بمجرد أن تتذكره ولا تعرف ماذا كان وإلى أين ذهب.

(25) إنقاذ جيروم

أحتاج أولا لأن أذكّرك بقصة (كان اسمه جيروم)، التي أعطيتها لي عندما كنا صبيين وطلبت مني قراءتها.. كانت إحدى قصص شخصية (مارتان ميلان) التي أبدعها الرسام والمؤلف الفرنسي (كريستيان جودار)، وتحكي عن (جيروم) صديق (مارتان) الذي كان مهووساً منذ الطفولة بتقليده، وبعد أن كبر الصديقان وحقق (مارتان) حلمه بالعمل كطيار أراد (جيروم) أن يكون مثله، لكنه حينما حاول أن يجرّب الطيران سقطت به الطائرة ومات.

الآن دعني أعيد عليك التاريخ هذه المرة بطريقتي: كنا صديقين مقربين جدا، وكانت لكل منا شخصيته المستقلة.. جمعنا في طفولتنا الشغف الطبيعي بالحكايات الخيالية والكوميكس وأفلام الكارتون.. لكن طريقتك في التحدث عنها، وفي وصف حبك وتعلقك بها كانت تثير إعجابي وحماسي في نفس الوقت.. كان من العادي أيضا أن نتشارك الاهتمام في بدايات المراهقة بالروايات البوليسية وأدب الرعب والخيال العلمي، كما تشاركنا في محاولة كتابة قصص مشابهة لتلك التي كنا نقرأها بنهم بالغ.. أتذكر أنه بينما كنت أكتب في تلك الفترة ما يمكن اعتباره نسخا مقلدة لتلك الحكايات؛ كنت ياصديقي ـ حتى مع تأثرك البديهي بأساليب مؤلفيها في الكتابة ـ كنت

تكتب قصصا مختلفة عن أحداث ومشاهد وشخصيات تنتمي إلى حياتك.. لم يكن عدم قدرتي على التحرر من محاكاة موضوعات الغموض والإثارة والعنف في كتاباتي يمثل مشكلة بالنسبة لي.. كنت أفكر دائما وأؤكد لنفسي بأنني وأنت في النهاية نعتبر الكتابة هواية تشبه أي هواية أخرى كجمع الطوابع ولعب الكرة والغناء أثناء التمشية ليلا.

جئتني بفرح هائل ذات يوم ومعك نسخة من جريدة (المساء)؛ فوجدت قصة قصيرة منشورة لك في صفحتها الأدبية بجوار صورتك مع تقديم جميل من بعض الأدباء والنقاد.. لم نكن قد تجاوزنا السادسة عشر، وخلال السنوات الماضية كنا لانزال نقرأ نفس الكتب، ويُسمع كل منا للآخر قصته التي كتبها.. صحيح أن هواية الكتابة مؤخرا بدأ إلحاحها يخفت عندي تدريجيا، لكنني كنت لازلت أكتب.. صحيح أيضا أن هواية الكتابة عندك أصبحت تطغى على كل الهوايات الأخرى، لكنني لم أكن أتوقع صراحة أن يصل الأمر إلى نشر قصة قصيرة لك وفي جريدة كهذه مع صورة وإشادة من كتّاب.. أعطيتك بالطبع التهنئة التي كنت تنتظرها، وأخذت نسخة الجريدة إلى البيت.. بعد أن قرأت أمي قصتك والمكتوب عنها ابتسمت، وقالت لي أن قصصي مثل قصصك وأنها لا تقل عنها أبدا.. لا يمكنني نسيان آلام الندم التي شعرت بها حينما أخبرتك يا صديقي في اليوم التالي بما قالته أمي.. كان هناك جحيم في داخلي أقوى من قدرتي على تحمّل كتمانه جعلني أتسرع بمنتهى الغباء والحماقة؛ فكانت النتيجة أنك ابتسمت بهدوء ولم ترد بكلمة واحدة.. أردت أن تقول لي أن هذا هو واجب الأم: تطيّب خاطر ابنها، وتسانده في لحظات كهذه.

لسبب أو لآخر بدأت في الذهاب معك إلى الندوات التي تواظب على حضورها وشراء نوعية الكتب التي تهتم بها.. كانت قراءاتك قد تجاوزت الأدب البوليسي والرعب والخيال العلمي، لكنني بعد وقت قصير أصابني ملل قاتل من حضور الندوات فامتنعت عنها بينما لم أتوقف عن شراء الكتب، وبحرص تام على أن تتعدى قراءاتي حدود ما تقرأه أنت.. كنت أذهب أحيانا إلى بائع الجرائد وأسأله: (هل عندك أي شيء في أي شيء؟)؛ فيحدق في وجهي مندهشا ويسألني عن قصدي.. أعيد السؤال عليه بطريقة أخرى: (هل لديك أي جديد في أي اتجاه؟)؛ فتتحول دهشته إلى بلاهة ممتزجة بالخوف؛ عندئذ يضطر لأن يقول لي بأن الكتب أمامي، ويمكنني انتقاء ما أريده.. داومت لسنوات طويلة على إنفاق معظم نقودي على شراء كتب في جميع المجالات.. كتب لم أكن أقرأها وإنما كنت أعيرها بفخر كبير لك.

مرت سنوات لم أكتب شيئا.. حاولت ولكنني عجزت حتى عن كتابة قصص تشبه التي كنت أكتبها في الماضي.. ذات ليلة كان النوم بعيدا فيها بقسوة نهضت من السرير، ووجدت نفسي أكتب شيئا يشبه: (سيأخذ العالم إلى حجرته.. سيكون عارياً بين يديه.. أما أنا فمخصي).. هذه المرة ترددت قليلا قبل أن أخبرك بهذه الكلمات.. كنت أريد فقط أن أعرفك بأنني لازلت أكتب، وبحماقتي التقليدية طلبت منك قبل القراءة ألا تعتبر أنك الشخص المقصود بها.. ابتسمت يا صديقي كالعادة، وبالطبع تعرفت على قدرات جديدة لغبائي خاصة حينما قلت لي بأنها كتابة جميلة جدا والضحكات تتدافع بامتنان من عينيك.

بعد موت جدتي نشرت على (الفيسبوك) نصاً قصيراً عن حياتها وعن علاقتي بتفاصيل عالمها القديم الذي لم يعد باقيا منه سوى ذكريات حنونة، تزيد عند استعادتها من شراسة الفراق.. أنت تركت (لايك) تحت سطوري ولم تكتب تعليقاً.. لم يكن بصري في حاجة لبذل أي مجهود كي يشاهد الابتسامة الواسعة لتلك الـ (لايك) بوضوح.. ولم لا.. كانت أفكاري ومشاعري عن جدتي في تلك السطور القليلة مصاغة بكلمات وتعبيرات منتزعة من نصوصك التي كتبتها عن أمواتك.. لحظتها تساءلت بيني وبين نفسي وبرغبة عنيفة في الحصول على إجابة حاسمة: هل ينبغي أن أواظب طوال حياتي على تقديم تلك الهدايا لك حتى أدعم إيمانك بأنني مغفل خارق؟!.

هل تتذكر تلك الليلة التي كنت خلالها في بيتك وقرأت لي إحدى قصصك، وأعجبك جدا تحليلي لها؟.. كنت قد أصدرت عدة كتب وعملت في الصحافة، ونُشرت لك الكثير من القصص القصيرة والقصائد والمقالات النقدية، وحصلت على جوائز وترجمات، كما بدأ أحد المخرجين في تحويل إحدى قصصك إلى فيلم روائي قصير.. يومها شعرت بحق أنك صادق، وأن تناولي للقصة كان مهماً فعلا.. خرجت من عندك، وطوال الطريق إلى بيتي ظل ذهني قابضا باعتزاز على كل حرف قلته عن قصتك متوسلا له كي لا يهرب.. فور دخولي من باب الشقة أسرعت إلى القلم والورقة لأدوّن التحليل الذي أعجبك.. قضيت الليل وأيام وأسابيع لا أتذكر عددها أعيد قراءته مسترجعا رد فعلك.. طلبت منك في لقاءنا التالي نسخة

من تلك القصة التي لم تنشرها بعد، فوعدتني بأنك ستعطيها لي لكنك لم تنفذ وعدك أبدا.

ذات يوم نشرت أنت قصيدة على فيسبوك.. كانت جميلة لدرجة أنها دفعتني لكتابة كافة الشتائم المختزنة في روحي ضد الحياة والموت والبشر على شكل جمل قصيرة متراصة تحت بعضها.. نعم كأنها شِعر يا صديقي.. مجرد شتائم أسرعت بحذفها بعد دقائق قليلة قبل أن تقرأها وتبتسم ابتسامتك المعروفة التي لن أراها.. أنا متأكد أنك قرأتها، ومتأكد أيضا أنك لاحظت اختفاءها، وأن ابتسامتك تحولت إلى ضحكة سماوية.

أعرف أنك لو كنت حياً الآن وقرأت كل ما سبق لقلت أنه تاريخ كاذب.. أنا معك أن كل ما كتبته الآن ليس صحيحا، ولكن هل تتصور أنني كنت سأنتظر حتى يحدث.. حتى الآن لا أحد يعرف أننا كنا نمشي ونغني ليلا في الطريق المهجور الذي وجدوك في الصباح التالي محترقا ومقيدا في إحدى أشجاره.. أنت الذي دفعتني لإنهاء الأمر في بدايته.. ما كان يجب عليك أبدا أن تعطيني قصة (كان اسمه جيروم).

(26) ظلال محنطة

ثلاث عجائز خرجن من العزاء.. اشترين آيس كريم وجلسن في الحديقة العامة.. هل كان ذلك احتفالا، أم أن تلك هي عادتهن بعد الخروج من عزاء.. انتبهت إحداهن إلى أن بعض الناس ينظرون إليهن باستغراب.. عجائز يأكلن آيس كريم بملابس سوداء، التي لسبب غامض لا يُفهم من سوادها أنها ثياب عادية، وإنما خاصة بحضور المآتم.. خلعت واحدها حذاءها، وبدأت تفرك قدميها بلذة.. تبعتها الأخريتان قبل أن يقررن مواجهة العيون المستغربة بابتسامات خفيفة.. كانت ابتساماتهن واضحة رغم التجاعيد.. بعد انتهاء الآيس كريم وارتداء الأحذية والمشي خارج الحديقة.. سيعدن إلى بيوتهن بيقين أنهن أصبحن ميتات تماما.. ظل كل فقدان أحد ينتمي إليهن يقرّب من اكتمال ذلك اليقين.. ربما كان المأتم الذي غادرنه منذ قليل هو الأخير، ولم يعد لديهن أحياء.. كانت ثلاثتهن شخصا واحدا للدرجة التي جعلت كل عجوز تستبعد أن تكون الأخريتان لا تزالا على قيد الحياة، بل تعتبرهما ميتتين مثلها.. لم يعد هناك مجال لأن يأتيهن الموت إذن بعد الآن.. كان احتفالاً.

(27) الظلام

أنت لا تراها الآن.. لكن ذلك لا يعطي أكثر من راحة قلقة، يائسة.. تشبه الاستلقاء المنهك فوق سحابة أُحتجزت للأبد داخل صورة فوتوغرافية لطائرة تقصف حضانة أطفال.. حتى وهي بعيدة، وربما خاصة وهي بعيدة عن ذهنك يزيد عذاب التفكير في حضورها.. الإدراك الثقيل، المخبوء كشوكة عملاقة ممتدة فروعها داخل كل مليمتر من جسدك.. هي موجودة في مكان ما قريب منك.. تذكير دائم لا تشفى منه ولا يقتلك نهائيا، يتوارى في كل انشغال بأمر لا يخصها.. لن تمر فترة طويلة حتى تعود إليك.. تدخل من باب الشقة ومعها ابنتكما، تطلب بأنفاس مقطوعة حمل الأكياس التي جاءت بها للداخل.. تصرخ في الطفلة التي تلاحقها لأخذ الشوكولاته من حقيبة يدها.. يختفيان معا في الردهة تاركة للفراغ الخالي من الهواء دليلا جديدا على أن الحياة تنكر فاضح لتحنيط كل رجل وامرأة فقدا الإيمان بكونهما استثناء.. حينما تغلق أنت الباب، وتذهب بالأكياس إلى المطبخ؛ لن تصطدم بحاملي دروع الفرسان والموسيقيين والحلاقين الذين يشتغلون بالجراحة ومحركي العرائس.. ستمر من خلالهم دون أي مشكلة.

ليست هذه ملامحها، وبالتأكيد ليس هذا صوتها بالضبط مثلما فقدت أنت

عينيك وأذنيك منذ فترة طويلة.. لماذا فعلت هذا في نفسك.. الجزاء الذي ينتظر خالقا ما؛ ليس حين يفشل في خلق ما يريد، ولا حين يعجز عن تحديد ما يريد خلقه، وإنما حين يظن أن بإمكانه أن يخلق فعلا.. تعيش الآن مع جثة تكونت من أشلاء جثث أخرى.. تسمع سعالها الخفيف المعتاد، المذيل بصوت تخليص حلقها من كتمان تعب اللوزتين الذي لا يفارقها.. لا تريدها أن تخرج الآن من الحجرة.. بالتأكيد كان هذا المشهد من ضمن التصورات التي صاحبت فكرة غاية في القدم عن صنع جحيم محكم: تجلس بجوارك أمام التليفزيون لتشتغل بمهارة وإتقان في قضم الجلد الميت حول أظافرها بصوت مقزز، مقترن بتحديق ذاهل من عينيها الجاحظتين لما يُعرض على الشاشة مع تعليقات واستفسارات سمجة تمدها إليك كأنها طرف حوار عادي ينبغي أن تلتقطه دون أن تنفجر أعصابك.. لا يأخذ الزمن رأي أحد.. يتكفل وحده بتجميع وتشكيل الجلود الميتة.. تسألك: لماذا تبتسم؟.. لا شيء.. فقط رأيت نساء حدادات وجامعي الدود وبائعي أصواف الأغنام وطبيبات شعبيات يعبرون الآن في طريقهم إلى الثلاجة.. هم يعرفون طريقهم جيدا.

أجزاء مهشمة من لعب كارتونية وبلاستيكية قديمة لها أوجه تشبه المرايا، وتتبادل رسائل خفية عن الفشل في فهم العمى الصخري لصمت أصبح نهاية لمعجزة عاطفية.. صمت عميق حد رؤية النعيم السماوي بوضوح من داخله، وحيث يمكن الاطمئنان المتواصل لخلود ملامح القاتل في وجه الآخر.. اللحظة المضحكة التي نأتي فيها من اتجاهين متقابلين، ونعبر بجوار

بعضنا عند نقطة ما داخل البيت كغريبين تائهين في مكان لا ننتمي إليه.. حيث لا نلتفت إلى بعضنا، بل نمر في خرس محصن يتولى بدلا منا قول نفس الكلمات المحرَجة، الآسفة، التي لا تخرج إلا من ثقب صغير في قبر: (هم الذين أتوا بي إلى هنا).. الكلمات التي بالطبع لا تخص العائلة فحسب، ولا تتنازل عن الصراع الضمني المتفق عليه لامتلاك النبرة الأعلى في الثأر.. اللحظة التي تُضحك البنّائون وكاتبو الخطابات للأميين وحارقو الجير وصانعو الأقمشة والورود والأحذية والقبعات.

لم تعد هناك حسابات يمكنها مجاراة الكوميديا المتدفقة من استمرار الأمنيات والتوقع والمطالبة بالتعويض أو التحرر أو محو الذاكرة.. النظر المرتجف، المتوسل من ثقبي بابين مغلقين حيث يصرخ كل واحد منا دون أن يراه الآخر أو يسمعه.. تأكل جسمها كأنك تبحث عنها وراء اللحم، أو تريد بهوس الاندماج والتوحد التام بآخر جمال تبقى منها.. لكن هياجك الشديد في سريركما يثبت . ربما دون قصد واضح . وضعها المجرد كامرأة لرجل.. درجة أهميتها أو الفائدة التي تليق بها، بشكل أدق الحقيقة الوحيدة المؤكدة التي تعطيها النساء خاصة زوجتك.. الثمن الذي تأخذه أنت بما أنك تدفع دائما من مرور الثواني والدقائق والساعات والأيام والشهور والسنوات.. أنت تعطيها مقابل أيضا بذلك.. تطمئنها على أنوثتها كاعتذار عن كل ما لاقته منك طوال السنوات الماضية وأنتما بملابسكما.. درجة أهميتك أو الفائدة التي تليق بك.. كيف يمكن نسيان الأنقاض التي نحرص تلقائيا على الحفاظ عليها، بينما الموتى الذين ينظرون إلى كل منا في عيني

الآخر لا يتبخرون.. الكارثة طبيعية جدا على أي حال، ويسهل معها إدعاء الشكل التقليدي لرفض الموت.. هذا ما يخبرنا به دائما الطباخون ومشغلو الرافعات ولاعبو النار والرواة الذين لا يكونون كذلك إلا باختراع كذبة جديدة لنفس الحكاية كل مرة.

كانت تتابع فيلم رعب بسرور وتركيز؛ الأمر الذي منعها من رؤيتي بينما استوقف امرأة قررت أن تكون ساحرة فعلا وهي في طريقها لاختبار الساحرات.. كانت مقيدة اليدين والقدمين بالحديد، والأقفال موصولة بأثقال ستُرمى معها في النهر.. نظرت في عيني امرأة ساعدها قرارها اللحظي قبل الموت ـ سواء غرقت أو حُرقت إذا طفى جسدها ـ على حدوث طول مفاجىء في شعرها، وظهور شامات متفرقة في وجهها.. اختفى الحراس على الفور، وظلت مكبلة بينما أسألها عن تفسير الحلم الذي يتكرر دائما:

أعود أنا وزوجتي خطيبين.. جارين خطيبين؛ أنا في الدور العلوي وهي في شقة الدور الأرضي.. لكنني أجد نفسي داخل الحلم منقطعا عن زياراتها والرد على اتصالاتها منذ فترة طويلة.. هي لا تعاتبني ولا تسألني عن سبب ذلك.. فقط تأتي إلى شرفة باب شقتها لتراني كلما سمعت ما يدل على صعودي أو نزولي السلالم.. تنظر لي دون شكوى ولكن بحزن.. أراها كما كانت.. جميلة ورقيقة جدا وغامضة كملاك ـ لماذا لا أضيف الشجن لتكون "غامضة بشجن ملائكي" حفاظاً على البرواز المعتاد لوصف بنت في حالة كهذه، والذي لا يمكنني التشكيك في صدقه أو ملائمته الآن.. أما أنا فلا أتوقف عن سؤال نفسي باستغراب عنيف: لماذا لم أعد أزورها أو حتى أتصل

بها.. كيف قضيت تلك المدة عينيّ في عينيها ولا أكلمها رغم أننا خطيبان.. كيف ظلت ساكتة، ومستسلمة بتعاسة مهينة لتجاهلي لها الأشبه بالنسيان المثالي، وعدم الإحساس بوجودها أصلاً؟!.. هكذا يبدأ الحلم من منتصفه دائما، متخلصا من البداية التي تبرره.. لكنه أيضا لا يكتمل.. ينتهي عند قراري بالذهاب إليها لأعتذر عما سببته لبراءتها من ألم، وإعادة الحياة كما كانت بيننا دون أن أعرف ماذا حدث بعد ذلك.. أستيقظ من النوم وليس عندي أي فكرة هل ذهبت إليها فعلا، أم أنني لم أنفّذ قراري.

تبتسم المرأة . لابد للمرأة أن تبتسم بعد سماع حلم على وشك تفسيره خاصة حينما تقرر أن تكون ساحرة أثناء ذهابها إلى الموت . ثم قالت بلغة غير مفهومة إلا لي . وهذا طبيعي جدا . أنني في الحلم أريد استعادة البنت التي أصبحت زوجتي.. استعادتها كجارة وحبيبة فقط بكل ما كان يعنيه هذا وينتج عنه.. أن تكون خطيبة أيضا كي لا ينقطع الممر الذي يتيح لي أن أمشي إليها دون عائق في أي وقت.. أما انقطاعي عنها فهو الرغبة في استرداد البُعد الذي كان يحمي شغفي بها، والغارق الآن في بحر أسطوري.. يضمن البُعد كذلك التحرر من العبء العدائي الهائل للزواج الذي حوّل أحلامنا إلى هياكل عظمية.. قالت المرأة أنني أريد استرجاع الضباب المثير الذي كان يفصل بيننا، حيث يمكننا أن نكون أكثر قربا وأشد تمسّكا ببعضنا.. التفكير من داخل العزلة التي لا تغضب أحدا، ولا يسعى أي منا لتحطيمها.. شعوري بالذنب في الحلم هو محاولة لترويض غضبي الذي لا يهدأ من مجرد وجودها في الحياة، ولأنه لا يصل إلى نهاية شافية كان عليه أن

يعيد اختراع الواقع بشكل عكسي ليجعلني مذنبا وتصبح المأساة أكثر خفة.. (تريد أن يعود كل منكما خيالا بالنسبة للآخر).. أنهت تفسيرها بهذه الجملة ثم ظهر الحراس ثانية واقتادوها . وهي لا تزال تنظر إليّ . ناحية النهر.

لم أخبرها أنني كنت أرى زوجتي في الحلم . حينما كانت جارتي وخطيبتي فقط . وهي ترتدي الأسود دائما.. ربما المرأة كانت تعرف ذلك.

(28) قطع الحبال

صعدت السلالم جرياً، وزوجتي تتعثر خلفي حاملة ابنتنا بينما البواب وراءنا يحاول الدفاع عن نفسه بأنفاس مقطوعة.. أقسم أنه لم يترك البوابة أكثر من دقائق معدودة وصل خلالها إلى أول الشارع ليشتري علبة سجائر وعاد فورا.. كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل، ومنذ فترة قليلة جاءني تليفون من بواب العمارة بأن لصا دخل شقتي ونجح في الهروب عندما اكتشفه.. وصلت إلى باب شقتي في الطابق الأول؛ كان مفتوحا ويخلو من أي أثر لعنف.. هذه الليلة قررت أنا وزوجتي المبيت عند أمها المريضة، ولم أنس التأكيد على البواب بأن يأخذ باله جيدا في غيابنا.. نزل بعض الجيران وتجمعوا على السلالم، والبواب لا يزال يشرح بارتباك كيف سمع صوت خطوات بعد عودته في شقتي؛ فصعد ليستكشف الأمر.. اندفعت أنا وزوجتي نتنقل بين الحجرات؛ نفتح الدواليب والأدراج ونراجع أشياءنا بينما البواب الذي دخل ووقف في منتصف الصالة يقول أنه وجد الباب مواربا فرن الجرس معطيا احتمال أنني عدت لأي سبب، لكنه سمع صوت ارتطام كبير لم يستطع أن يميز هل حدث داخل الشقة أم في الشارع فقرر الدخول ليجد البلكونة مفتوحة.. تأكدت أنا وزوجتي من أن اللص لم يسرق شيئا فجلسنا لنحاول مساعدة الاطمئنان على تخليص جسدينا من تعب الأعصاب التي أنهكها الفزع.. تشجعت خطوات الجيران على التقدم

أكثر كي يحصلوا على معرفة أفضل فارتاحت أقدامهم عند عتبة باب الشقة بينما ظل البواب واقفا مرتعشا أمامنا في منتصف الصالة ويكمل ما حدث.. أخبرنا أنه دخل البلكونة فورا؛ فرأى في الشارع رجلا يرتدي ملابس سوداء، ويجري بأقصى سرعة، وأن الشارع كان خاليا تقريبا في هذه الساعة المتأخرة فلم يشاهده إلا شخص تصادف سيره في الجهة المقابلة.. عرف البواب ـ وكما أكد له الشاهد ـ أن اللص كان يلبس أيضا قناعا قماشيا أسود، يغطي رأسه ووجهه، وأن صوت الارتطام كان نتيجة قفزه إلى سطح صندوق عال لسيارة نصف نقل تقف تحت البلكونة.. كانت المسافة قصيرة بين البلكونة وسطح صندوق السيارة، وأقصر بالطبع بين سطح الصندوق وأرض الشارع.. اختفى اللص تماما قبل أن يقرر العابر الوحيد هل يجري وراءه أم لا.. كان لا يمكن للبواب أن يلحق به بالتأكيد، لكنه لم يتوقف عن لوم نفسه على ترك البوابة دون غلقها حتى لو لم يستغرق غيابه عنها سوى مدة محدودة.. لم تكن لدي قدرة على التحدث معه فاكتفيت بالتأكيد له وللجيران الذين بدأوا في الانسحاب والصعود إلى شققهم على أننا لم نفقد شيئا ثم أغلقت الباب.

دخلت زوجتي الحجرة لتساعد ابنتنا على النوم، وكذلك لتطمئن أمها في التليفون، بينما ظللت واقفا في الصالة أتفحص محتوياتها، عاجزا عن انتزاع المهانة التي تغرس أنيابها ومخالبها الوفيرة في روحي حتى مع عدم نجاح اللص في سرقتنا.. كان يكفي أن يقتحم غريب شقتي وينجح في الهرب حتى أختنق بألم الإصابة بجرح غير متوقع، سيترك أثرا دون أن أتمكن من رده.. لكن غضبي المكتوم لم يكن ناجما عن هذا الجرح فحسب، بل ربما على نحو أقوى عن اصطدامي العنيف والمفاجئ بدليل واقعي لا يقبل الشك على أنني لست آمنا..

فرق كبير جدا بين أن تفكر طوال الوقت وتشعر دائما بأنك مهدد، وبين أن تحصل على إثبات فعلي لذلك.. ستؤمن لحظتها بأنك . رغم كل أفكارك ومشاعرك وتوقعاتك السابقة للمآسي . لم تدرك شيئا عن العالم؛ الأمر الذي سيزيد من القوة المرعبة لانشغالك بعدها بالخطر الذي يتوعدك باستمرار والمدعومة بالذكرى.. كان هناك أيضا إحساس خافت في داخلي بالرضا قد يصل بغرابة لدرجة الامتنان لما تعرضت له اليوم.. بفضل اللص عثرت على راحة مؤقتة سببتها النجاة من أذى لم أتغافل لحظة واحدة عن ترقب حدوثه بخوف عظيم.. ليست السرقة تحديدا وإنما الأذى بشكل عام ومبهم، ويحق لي الآن امتلاك قدر ولو ضئيل من فرح سري نتيجة خروجي سالما من قسوة التجربة الحقيقية التي عشت انتظرها.

توقفت عينيّ عند نقطة معينة، وشعرت بتقلص حاد في معدتي وبدقات قلبي تتسارع بشدة وجسمي كله ينتفض.. تأكدت بعد تمعن من أن اللص قد سرق شيئا بالفعل.

رن جرس الباب.. كنت موقنا وأنا أفتحه بأنني في عد تنازلي سريع نحو الموت أو على الأقل الإغماء.. لم يستطع البواب أن يترك الليلة تنتهي دون أن يفعل كل ما في وسعه لاسترداد ثقته في نفسه، وكذلك ثقتي فيه؛ فقرر أن يصارحني باستنتاجاته الهامة عن القضية، والتي ربما رأى أنه من الأفضل أن يطلعني عليها بعيدا عن الجيران: اللص يعرف أنني وزوجتي غادرنا البيت ولم نرجع إليه اليوم، وهذه المعلومة لا يمكن لأحد معرفتها إلا لو لم يغمض عينيه عن مراقبة العمارة، وهو ما يفسر دخوله فور ابتعاد البواب عنها؛ ولهذا يرجح بقوة أن اللص من الشارع أو من العمارة وهو احتمال ضعيف جدا يكاد يكون مستحيلا لأن

جيراننا (محترمون).. اللص محترف لأنه نجح في اقتحام الشقة في زمن قصير جدا، ودون صوت أو خدش، كما أن جرأته في القفز من البلكونة وسرعة جريه تؤكدان ذلك.. اللص كان يعرف بالضبط ما ينوي سرقته، وأن الأمر لهذا لن يأخذ وقتا طويلا؛ فترك باب الشقة مفتوحا على أساس أنه سينهي عمله سريعا وينزل السلالم مغادرا العمارة قبل عودة البواب دون أن يضطر للمخاطرة بأن يسمع أحد من الجيران أي صوت قد يصدر عن إغلاق الباب.. بالطبع ساعده في ذلك الوقت المتأخر حيث يندر فيه صعود أو طلوع السكان، رغم أنه حتى لو حدث ورأى أحدهم باب الشقة مفتوحا فلن يشك في شيء، بسبب افتراض أنه لا أحد يعلم منهم أن صاحبها وأسرته سيبيتون في الخارج. ظللت أنظر إلى البواب ثم ربت على كتفه وأغلقت الباب.. لم أستطع أن أخبره بما اكتشفت سرقته.. لن أتمكن أبدا من أن أخبر أحدا بذلك.. كيف أخبر الآخرين بأمر عاجز ببشاعة عن تصديقه؟.. مزيج رهيب من الذهول والقلق يجعلني أستعيد مرارا تأكدي من أنني رأيت ذلك الشيء قبل خروجي بلحظة واحدة في مكانه المعتاد حيث احتفظ به.. أعرف أنني لا أعيش داخل كابوس، ولذلك لا أفهم لماذا لا ينبهني من حولي، ولا يتعاملون معي بوصفي مجنونا؟.. لماذا يتصرفون كأنني في حالة طبيعية، وكأن كل ما حدث كان حقيقيا جدا؟!.. أستطيع ببساطة أن أصدق جنوني أكثر من مجرد تخيل أن يدخل لص إلى شقتي في غيابي ليسرق ذلك الشيء فقط ويهرب.

في اليوم التالي ـ لم أتمكن من الانتظار أكثر من ذلك ـ قررت الذهاب بشعور قاتل بالبهجة والندم وباستيعاب بالغ لكوني فاشلا مثاليا إلى شارع هادئ جدا حيث فيلات وقصور وبيوت مهجورة لمصريين وأجانب زمن قديم.. هناك شجرة

عجوز أعرفها منذ طفولتي، وقفت عندها وانتظرت خلو الشارع تماما ثم حفرت بجانبها وأخرجت ألبوم صور: أنا وأمي مع تلاميذ ومعلمات المدرسة الابتدائية.. أعياد ميلادي قبل بلوغي العاشرة.. كروت لشموع ملونة، وزهور واعدة، وصغار سعداء برفقة أسرهم كانت تُهدى للأمهات والمدرسات في أعياد الأم فترة الثمانينيات.. لقطات تذكارية مختلفة لعائلتي : أفراح.. رحلات.. أماكن عمل ودراسة.. مصايف.. كازينوهات ومقاهي.. منازل وشوارع.. استديوهات تصوير لم تعد موجودة.

استعدت الألبوم، وترددت كثيرا قبل أن آخذ الملابس السوداء والقناع القماشي.

(29) المؤخرات

الممرات المتعانقة، الملتفة حول نفسها باطمئنان داخل سحابة هائلة.. حيث لا يوجد مشي بالتأكيد؛ بل طيران يليق بحياة محسومة.. يعبر الواحد منا بخفة لا يقدر على استيعابها، يصادف أخا له مستندا بسعادة على جدار ممر.. يناديه مستعطفا، وواثقا من ماض ما.. أحيانا يتجاهل الواحد منا أخاه المستند على الجدار، لكن هذا أمر نادر جدا حقيقة.. دائما تستجيب لنداء أخيك . أنت في حاجة لذلك دون شك . متأكدا أنه سيخرج لوحة من مخبأ غامض في جسده ليخبرك أنه تمكن من رسمك، وليس مطلوبا منك أكثر من الخضوع المنبهر لصدق اللوحة.. تحاول إقناعه بشتى السبل المؤذية أن المؤخرة المرسومة ليست أنت، وأنها قد تكون هو نفسه أو أحدا من عائلته أو شخصا متخيلاً لا يمتلك تأكيدا على وجوده، لكنه لن يفهم أبدا.. لن يتصور أن ألوان وخطوط وظلال تلك المؤخرة ليست سوى أرواح قديمة فاق حس الدعابة لديها كل الحدود، وأنها تحالفت عبر الأزمنة لجعله رسام ابن نكتة مثلها؛ لا يرسم سوى مؤخرات.. لن يهدأ أبدا دفاع أخيك وبشتى السبل المؤذية أيضا عن صحة ظنونه بأن هذا الرسم هو أنت، وأنه لا يكشف فحسب عن ملامحك الخارجية بل . وبدرجة أكبر طبعا . عن تكوينك الداخلي وحقيقتك السرية.. تلك هي الحياة العادية للممرات

المتعانقة، الملتفة حول نفسها باطمئنان داخل سحابة هائلة.. يقضي الواحد منا عمره غاضبا ومسلماً أمره للانتقام من كل الذين يرسمون مؤخرات، ويحاولون بكل ما لديهم من ضعف ورعب إجباره على تصديق أنها هو.. الحياة العادية التي لا تُمنح فيها الصور الفوتوغرافية واللوحات الأخرى قيمة أكثر من ضرورتها في تثبيت أسطح وقشور البشر والأشياء بين أربعة حواف لحماية الخرافات من الوقوع.. داخل الممرات المتعانقة لا يمكن للصور واللوحات أن تصمد أمام المعرفة اليقينية الراسخة بمهابة في المؤخرات التي يرسمها الناس طوال الوقت لبعضهم.. ماذا عن الموت؟!.. ليس أكثر من امتداد لعادية الحياة التي سبقته.. يسخر إخوانك منك، ويتحسرون عليك بعدما ينتهون من إلقاء جثتك خارج السحابة الهائلة.. يقضون زمنا ما في البكاء من شدة الضحك والفزع، عاجزين باندهاش عظيم عن إيجاد مبرر لك أو حجة تفسر لماذا أهدرت عمرك في رسم المؤخرات، محاولا باستبسال إقناعهم بأنها صور لهم.

(30) الطبقة الوسطى

الذين نفّذوا التعليمات بدقة؛ وجدوا أنفسهم داخل مستنقع مغلق، ليس له سقف.. تسمّروا ذاهلين في أماكنهم وسط النباتات الضخمة والأشجار الكثيفة والمتشابكة، بينما أقدامهم تفقد إحساسها تدريجيا داخل طين أرضي ثقيل على وشك التحجر.. كان الهواء متخشبا ويزداد ضغطه على عظامهم لحظة بعد لحظة، أما الضوء فكان رماديا ويتحوّل على مهل نحو عتمة تامة.. لم يسمعوا شيئا طوال الوقت الذي لم يختلف مروره كثيرا عن منشار كهربائي يتجوّل في أجسادهم.. ظلوا يتلفتون حولهم داخل ذلك الكتمان حيث كل ذرة فراغ تسحق الأخرى، والمشهد بأكمله آخذ في الاختفاء ببطء شديد.. كانوا يريدون فقط أن يعرفوا هل هناك تعليمات جديدة أم أن الأمر قد انتهى.. لم يكن هناك أفظع من الهاجس الذي امتد عبر أدمغتهم فجأة بأن مصيرهم الآن لن يكون له أي علاقة بالتعليمات التي نفّذوها بدقة.. لماذا خطر في بالهم ذلك الاحتمال الرهيب؟.. ربما بسبب السماء التي كانوا يرونها بوضوح بما أنه ليس للمستنقع المغلق سقف.. لم تكن هي السماء التي تعوّدوا على رؤيتها طوال حياتهم، واكتشفوا الآن بعدما طال وقوفهم أنه لا جدوى من إنكار ذلك.

(31) لا يوجد موت مفاجئ

لو مات أخوك الأكبر فجأة منذ سنوات طويلة جدا، ووقفت بشرفته في صباح اليوم التالي ورأيتها؛ كنت ستعتبرها عزاءا منطقيا تعمدت الحياة ـ كما يليق بساحرة حكيمة تنظم الأقدار والمصائر من مخبأها في سماوات الحكايات القديمة ـ إرساله إليك فورا ليطمئنك، ولتذكّرك بأنها رغم كل شيء ـ كما يؤكد العارفون بها ـ أقوى من الموت.. بشكل أو بآخر ستكون ممتنا جدا.

لو مات أخوك الأكبر فجأة منذ سنوات طويلة فقط، ووقفت بشرفته في صباح اليوم التالي ورأيتها؛ كنت ستعتبرها ابتسامة ساخرة طبيعية، ينبغي أن تتسع في لحظة كهذه أمام عيون العاجزين عن التصديق مثلك؛ لتعطيك دليلا إضافيا أقوى على مدى حماقة الدنيا.. ستجدها فرصة ثمينة لزهو خفي بجدارتك بتلك الرسائل التي لا يبعث بها العالم إلا للذين يحملون آلامك، ويمزقهم الانشغال بقسوة الحياة وظلمها.. يالها من كلمات سخيفة يجب تكراراها إلى ما لا نهاية كي يظل الأكثر بشاعة في القتل محاولة وصفه.

حينما يموت أخوك الأكبر فجأة أمس، وتقف بشرفته في صباح اليوم ـ حيث يجهزونه للدفن داخل حجرة مجاورة ـ وترى جارته العجوز وهي تسقى النباتات بيدها المرتعشة؛ فإنك لن تتمنى شيئا سوى أن تموت تلك العجوز الآن.

(32) رائحة الفم الكريهة

مساء الخير يا عزيزتي.. اليوم فتحت شباك حجرتي عصرا.. كانت هناك غيوم كثيفة وهواء بارد لكنني كنت أعرف أنها لن تمطر.. الشتائيون المخضرمون يدركون ذلك، أو بالأحرى لا يخيب الشتاء توقعهم بسقوط المطر أو الاكتفاء بالغيوم الكثيفة والهواء البارد.. كان وقتا مناسبا جدا يا عزيزتي لتحقيق الحلم الذي عشت عمري كله دون أن أنفذه.. أن أخرج في هذا الجو إلى حديقة عامة ومعي ساندوتش (سوبر سي فود مشوي كومبو)، وكانز (بربيكان)، ورواية فرنسية كتبتها امرأة كـ (ملكة الصمت) لـ (ماري نيميبه) مثلا.. الفرنسيات كاتبات رائعات يا عزيزتي؛ هكذا عرفت من أعمالهن، كما عرفت أيضاً من السينما أن حياتهن شكلها جميل جدا.. كنت سأرتدي ملابس ثقيلة وغامقة، وأجلس على كنبة وسط الأشجار والورد لآكل وأشرب وأقرأ، بينما سماعتي الموبايل تمرران لروحي أغاني (إديث بياف)، و(ميراي ماتيو).. كالعادة لم أخرج يا عزيزتي لنفس السبب الذي منعني طوال عمري كله.. خفت أن يحدث لي شيء.. أن أدوخ فجأة أو أشعر بهبوط حاد أو بتسارع عنيف في دقات قلبي فأضطر لطلب المساعدة من غريب.. دائما لدي تأكد من أن هذا ما سيحدث لي لو حاولت تحقيق ذلك الحلم.. انتظري.. نسيت أن أخبرك عن سبب آخر دفعني لعدم الخروج: حتى لو ذهبت إلى الحديقة وفعلت كل ما أتمناه ثم مشيت

خارجا منها دون أذى؛ لن تحدث أبدا معجزة، ويوقفني شخص مبتسم بطيبة شديدة ليخبرني بأنه صوّر بموبايله فيلما لي دون أن أشعر منذ اللحظة الأولى لجلوسي وحتى الآن، وأنه يسعده كثيرا أن يعطيني الفيلم بالبلوتوث.

واربت الشباك منكسرا ويائسا يا عزيزتي، وأسدلت الستارة ثم بدأت في تحميل كتاب (نقد استجابة القارىء) مستمعاً إلى (محمود الليثي) وهو يغني (إنت يا إنت)، وكالعادة لعنت ملة الموزع الذي أفسد إيقاع الأغنية القديمة.. وضعت الكتاب في فولدر المصادر التي أنوي مناقشتها في كتاب أقوم بكتابته عن (المؤلف) و(النص) و(القارىء).. هكذا يبدو الأمر ظاهريا، لكنه في حقيقته محاولة للحصول على يقين ثابت ونهائي بأن كتاباتي تفعل شيئا ما في الحياة.. ربما تشعرين الآن أن (شيئاً ما) هو أخف ما يمكنني قوله في لحظة كهذه، وأقرب نقطة حماية استطعت بلوغها بعيداً عن الابتذال الكامن في (شيء جميل).. ثقة في دماغك التي أعرف أن خدعة كهذه لن تنطلي عليها سأقولها لكِ صراحة: محاولة للحصول على يقين ثابت ونهائي بأن كتابتي تفعل شيئا جميلا في الحياة.. هل أنتِ سعيدة الآن؟.. لكن انتبهي جيدا يا عزيزتي فأنا أقول جميلا وليس نافعا أو إيجابيا.. لن يمكنني أن أشرح لك ما أقصده من هذا بالضبط حالاً، ولكن يكفي أن تعرفي باختصار أن الجمال أو (الشيء ما) الذي أفكر فيه هنا هو الحصول على دلائل تشير إلى محاولة اقتراب . عبر أي زاوية . من تجربة أمكنها التحوّل للحظات على الأقل إلى احتمال أو واقع مؤقت لدى كائن آخر تحت أي انحياز أو رغبة.. لست راضياً بالتأكيد عن هذا الاختزال المشوّه لما أريد التعبير عنه، لكنني بالأمانة متعوّد على سخافته كلما حاولت شرح

أفكاري لأصدقائي لذا أعدك بأنني سأرسل لكِ نسخة من الكتاب فور صدوره.

دخلت على فيسبوك لأكتشف أن صديقا قديما قد حذفني من قائمة أصدقائه.. حينما أقول صديقا قديما يا عزيزتي فإنني لا أعني معرفتي به منذ زمن طويل فحسب، ولكنني أقصد أيضا كما يقولون كان بيننا (عِشرة عمر) و(عيش وملح)، وكان واضحاً أن موقفي مما يسمى بالثورة المصرية والإسلاميين والفلول إلى آخر هذه الهيستيريا هو ما دفعه لحذفي.. بصدق تام لم أشعر بالحزن، وإنما بالغضب.. أتدرين لماذا.. لأنني أعرف عن ماضيه ما يتنافى مع هذا الفعل.. لدي ذاكرة موثق فيها تاريخ مضحك لمهانته يُفترض . لو امتلك شجاعة وضعه أمام عينيه دائما . أن يمنعه من ادعاء أي ثقة في شخصيته.. كان ينبغي عليه أن يشعر بالخجل فقط، ويعيش وفقا لذلك الشعور خاصة مع من يعرفه جيدا.. لا أعرف ولكنني شعرت بالغضب أيضا لأنني أدركت بأن الفرصة صارت ضعيفة جدا الآن لتحقيق أمنية أخرى.. رغبة قديمة ليست تجاه هذا الصديق فقط، وإنما تجاه كل الأصدقاء الذين عرفتهم: أن أواجه كل واحد منهم بتاريخه المضحك، وأن أعطيه نصيحة ختامية بألا يكذب على نفسه وعلى العالم بحياة متبرئة من هذا التاريخ تفاديا لاستمراره.. لا يقتصر الأمر عند ذلك الحد بل تمتد أمنيتي أيضا إلى أن يحرص الصديق بعد سماع هذا الكلام على أن يستمر حتى موته في إخبار كل من يقابله بأنني مثله الأعلى.. أعرف السؤال التلقائي الذي في ذهنكِ الآن يا عزيزتي وهذه هي الإجابة: ليس لي تاريخ مخجل يمكن لأحد أن يواجهني به، وإذا كان هناك من سيتخيل أو سيكذب أو سيفسر معرفة ما بشهوة

انتقامية فلديه كل الحق لأنني متأكد من أنني تسببت للآخرين . رغما عني . في آلام كثيرة.. (ضحكة شريرة مرتعشة).

قرأت شهادتكِ عن الاعتداء الجنسي الجماعي الذي تعرضتِ له في التحرير يا عزيزتي.. مهما قلت لكِ فلن يمكنكِ تخيل مدى الألم والغضب بداخلي الآن، ومدى الرغبة في معاقبة كل من تسبب في هذه المعاناة البشعة التي عشتيها.. حتى أكثر البشر تبلداً، يكفي أن يتخيل أحدهم للحظة واحدة حدوث تلك التجربة القاسية لأمه أو لأخته أو لزوجته حتى يشعر بكِ.. لكنني من جهة أخرى يجب أن أحذرك: هناك من سيذهب إلى صفحتكِ بعدما ينتهي من قراءة هذه الشهادة أملاً في أن تعطيه صوركِ شعورا ممتعاً أقوى بالمشاهد التي حكيتِ عنها، ولكنه حينما يكتشف أن هذه الصور متاحة فقط لأصدقائك سيرسل لكِ على الفور طلب إضافة.. أرجو قبول الصداقة يا عزيزتي.

(33) The Bus in Hitomi Tanaka

أمره المخرج بأن يظل جالسا على مقعد الباص، وأن يسند رأسه على زجاج النافذة ويتظاهر بالنوم العميق.. ألا تكون له أي علاقة بما سيفعله بعض الركّاب الآخرين بالسيدة Hitomi Tanaka*.. سمحت له لحظات قليلة قبل التصوير بإلقاء نظرة على السيدة Hitomi وهي تصعد إلى الباص مرتدية بالطو أسود قصير على اللحم.. أغمض عينيه وبدأ العمل.. كانت المرة الأولى له، وعرف أن مشكلته الوحيدة هي الأصوات التي أثارت شهوته أكثر، ودفعته لتخيل تفاصيل المشهد الذي يدور على بعد خطوات قليلة من مكانه.. شعر بالخوف والارتباك من أن يتسبب هذا التخيل في تحويل حِجر بنطلونه إلى خيمة صغيرة رغما عنه، أو تظهر نتائج هياجه المكتوم على ملامحه بأي شكل فيتسبب في إفساد التصوير.. قرر البحث عن طريقة فورية تعزله تماما عما يحدث.. رأى أن أنسب ما يحقق له ذلك هو تخيل مصيبة والاستغراق في التفكير فيها.. تصور الباص يخرج من شوارع (طوكيو) ويتجه نحو طريق جبلي ثم تخرج عجلاته فجأة من الحافة ويسقط.. رأى سقوط الباص من الارتفاع القاتل بالعرض البطيء جدا وهو يتقلّب في الفراغ، ثم يرتطم بالأرض محطما تماما بينما أشلاء الجثث تتدلى من نوافذه المهشمة.. كان يجب عليه بالطبع أن يحاول التوصل إلى تبرير

منطقي لنجاته من حادث كهذا.. فكر كثيرا ولكنه فشل.. لم يجد له أي فرصة للنجاة من السيناريو الذي اخترعه.. لماذا لا يغير السيناريو إذن بما يسمح له بالبقاء على قيد الحياة؟.. فكر كثيرا مرة أخرى ولكنه فشل أيضا.. لم ينجح ذهنه في تخيل سيناريو آخر يرضيه وبالتالي كان لابد أن يموت.. أفزعه هذا الاحتمال جدا لأنه يعرف أنه لا يجب أن يموت الآن.. كان يتساءل في داخله بمنتهى الرعب: كيف يموت وهو لم يصدر بعد كتابا عن دار الشروق أو حتى دار ميريت أو على الأقل دار العين؟.. بفعل قسوة الخاطر البشع شعر بقلبه يدق بسرعة، وبأطرافه ترتعش كما تسببت دوخة مباغتة في فقدان رأسه لاتزانها.. بشكل لاإرادي فتح عينيه فتحة صغيرة جدا ليتأكد من أن أحدا لم ينتبه إلى حالته العصبية التي حاول بقدر ما يستطيع إخفائها.. رأى ما جعله يفتح عينيه بما يفوق اتساعهما.. كان لا يزال جالسا على كرسي الباص، ولكن الكرسي كان موجودا على أرض عشبية شاسعة تحاوطها جبال عالية جدا، بينما الباص أمامه مقلوبا على ظهره مدمرا بالكامل، وكتل بشرية ممزقة محشورة في ثقوبه.. رأى السيدة Hitomi Tanaka تقف بجوار الباص تنشف جسمها العاري من لبن الأطفال ثم تسير نحوه مبتسمة، وتنزل بركبتيها على الأرض بين فخذيه.

*Hitomi Tanaka: واحدة من أجمل وأحن وأنشط نجمات البورنو اليابانيات.

(34) قتل فرويد

أشارت أمي بعتاب غاضب إلى الكشكول الأبيض المغلق على المكتب أمامي وقالت بهدوء حاد: (بلاش إللي انت بتكتبه ده)...

خرجت من الحجرة وتركتني محترقا بمزيج عنيف من الخجل والغضب بعدما عرفت أنها فتحت الكشكول من ورائي وقرأت الحكايات الجنسية التي تخيلتها بيني وبين جارتنا.. جارتنا التي في مثل سن أمي تقريبا.

* * *

طلب مني غلق الباب.. كان مرتبكا وصوته خافتا على غير عادته، بينما ابتسامته التائهة تفشل في الاكتمال وهو يقول لي: (هناك أولاد سيئين، أهلهم فشلوا في تربيتهم ولا يعرفون الله؛ يفعلون في أجسامهم من تحت أفعالاً قذرة تدمر صحتهم، وتجعل ربنا غاضباً منهم.. أنا متأكد من أنك لست من هؤلاء الأولاد لأنك رجل محترم وعارف ربنا...)

صمت للحظات متحاشياً النظر في عيني ثم سألني : (مش كده؟)

أجبته على الفور: (طبعا)

بعد خروجي من حجرته ظللت أضحك بيني وبين نفسي كثيراً بفرح على هذه اللحظة التاريخية التي رأيته فيها لأول مرة مكسوفاً ومضطرباً بعدما عشت طوال حياتي عاجزاً حتى عن تخيله في هذه الحالة.. أدركت أن أمي قد أخبرته بأنني أقضي في الحمام وقتاً طويلاً، ولكنني لم أفهم كيف لم يتردد

أبداً من قبل في صفعي بكل قوته بسبب إهمالي في أداء الصلاة ولا يفعل ذلك حينما يعلم أنني أمارس العادة السرية.. كان كل ما تصورته في هذه اللحظة أن اكتشافه المفاجىء لتحوّل حمامتي إلى قضيب دفعه للتفكير في أن التحدث معي بأدب وحرص في هذا الأمر سيضع سياجاً أخلاقياً حول الأحلام التي يمكن لقضيبي الاستجابة إليها.. هل كان أبي يعرف أن فشلي بعد موته في أن أكون نسخة منه سيجعلني أضاجع أمي وأختي كثيراً في أحلامي؟.

* * *

أختي لا تتعلم من الماضي.. تفترض كل مرة أنها حينما ترتدي ملابس الخروج وتضع مكياجها وتحمل حقيبتها أن أبيها سيوافق على ذهابها إلى صديقتها حينما تسأله (ممكن أخرج؟).. أحياناً يوافق مع تحذيره التقليدي الصارم (ما تتأخريش) وأحيانا أخرى يرفض بمنتهى البساطة دون أن تعنيه دموعها وهي تخلع فستانها وترتدي جلابية البيت.. أختي تعرف أن أبيها كان حنونا عليها في طفولتها وأنه كان يقبّلها ويأخذها في حضنه كثيراً.

* * *

بعد سفره إلى الخارج نشأت رغبة تلقائية مشتركة بيني وبين أمي في النوم مكانه بجوارها.. كان النعاس يرفض المجيء إلى عيوننا إلا وأنا أحتضنها من الخلف.. أحيانا كنت أرغب في سحب يدي من تحت ذراعها الدافىء أو التقلّب والنوم في وضع آخر، لكنني كنت أمنع نفسي وبحرص تام على عدم إبداء أي فعل يدل على تلك الرغبة حتى لا أقلقها أو أحرمها من الشعور بالراحة.. كنت أفتقد أبي بشدة لدرجة أنه كلما أرسل خطابا أو شريط

كاسيت أظل أبكي طويلا، لكنني أثناء البكاء كنت أتذكر أيضا أن عودته ستعني فقداني لمكان نومي بجوار أمي.

* * *

انتظرت أختي حتى انتهيت أنا وأبي من صلاة العصر جماعة في حجرته وسبّحنا ودعونا لأنفسنا ولأمواتنا وللمسلمين ثم أخبرت أبي بمنتهى الهدوء وعلى شفتيها ابتسامة منتصرة بأنني صليت معه دون وضوء.. ربما الذي منع أبي من ضربي والاكتفاء باللعنات والشتائم الصارخة هو رغبته في الإسراع بمعاودة الوضوء والصلاة وإضافة ركعتين تكفيرا عن هذا الذنب الذي لم يكن له يدا فيه.. نظرت في عيني أختي باحثا عن سبب فضحها لانتقامي السري من أبي رداً على إجباري على الصلاة معه.. رأيت تأكدها المؤلم بأنني لم أعد الطفل الصغير الذي كان ينام بجوارها ويبلل فراشه في الليل، وكانت تستيقظ من النوم كي تغيّر له ملابسه.. رأيت إدراكها اليائس بأنني في طريقي لأن أكون أبي.. ظلت أختي تتطلع إليه طويلا بعد وضوءه وصلاته وأثناء مشيه وجلوسه.. كانت تتابع أبي بعينيها المنطفأتين منتظرة كلمة شكر أو على الأقل نظرة رضى يمكن تفسيرها بشكل ما على أنها نوع من المحبة.. أختي حاولت أن تحقق في الواقع وبأقصى قدر من المسالمة الأحلام التي كانت تتخلص فيها من أمها.

* * *

أختي تحمم أبي وتفكر في أنه لولا الشيخوخة والزهايمر وموت أمها ما تمكنت من رؤيته عاريا تماما هكذا، ولا استطاعت أن تلمسه بهذا الشكل.. ما تمكنت . رغم معاناتها في التعامل مع جسده الثقيل المتيبس . من استرداد

أخيها الصغير الذي كانت تحممه في الماضي وتنشفه وتلبسه ثيابه وتمشط له شعره.. أختي تفكر أيضا في ذكورة أبي الميتة التي بالتأكيد كان يمتلكها حينما كان يحممها وهي طفلة.. المشهد الذي ضاع من ذاكرتها، ولكن ذكورته ظلت تشعر بها في كل لحظة من حياتها.. طوال السنوات الطويلة التي انتهت بجلوسه عاريا على كرسي داخل الحمام لتأخذ هي مكانه.. ربما أعطت احتمالا ولو ضئيلا وهي منحنية عند قدميه كي تلبسه الكلوت وتبكي بأن المعجزات أقوى من الزهايمر بحيث يمكن لأبي أن يأخذها الآن في حضنه.

* * *

كانت المرة الوحيدة التي رأيت فيها كلاً منهما يحتضن الآخر ويقبّله.. كنت طفلا وأخذتني أمي ـ تحت إلحاح صرخاتي الباكية ـ إلى المطار لاستقباله.. رأيتهما سعيدين للغاية، وفي شوق عظيم لبعضهما، ولكن هذا الموقف لم يكن يعني لي شيئا وقتها، وإنما بعد مرور سنوات طويلة لم أتوقف عن استرجاعه لأذكّر نفسي بأن أمي امرأة يمكن لرجل أن يحتضنها ويقبّلها، وأن أبي يمكنه أن يكون عاطفيا ويستطيع التعامل مع أمي برقة.. كان التذكير يساعدني على الاطمئنان بأن أمي عاشت وقتا جميلا برفقته في السرير ـ حتى لو كان مجهولا بالنسبة لي ـ بعد أن اعتبرت لحظة المطار إشارة إليه.. الذكرى التي أصر على التخلص منها بنفس إصراري على استدعائها.

* * *

سألت أختي: هو الممثلين بيبوسوا بعض بجد في الأفلام؟

أجابتني على الفور وبنبرة غاضبة: لأ طبعا.. بيقربوا الصورتين من بعض...

- إزاي؟

- معرفش بس أسمع كده.. وانت مالك والحاجات دي؟...

- عايز أعرف بيحسوا بإيه لما بيبوسوا بعض...

- بطّل قلة أدب.

- تيجي نبوس بعض؟

ثم ألصقت شفتيّ بشفتيها فجأة بشكل خاطف فأبعدت وجهها بعنف صارخة : يا مقرف...

ثم ثارت في وجهي بحسم : متعملش كده تاني...

كنت في العاشرة وكانت هي في أواخر العشرينيات.. سمعت كلامها ولم أكرر القبلة طوال الخمسة وعشرين سنة التالية التي لم تتزوج فيها أختي.. بعد موت أبي وأمي أجلس معها بمفردنا في شقة الأسرة التي أصبحت تعيش وحيدة بها.. أحدثها من بعيد وبكلمات مغطاة عن علاقتي الجنسية بزوجتي فتضحك، وأرى في وجهها رغبة مكتومة لسماع المزيد.. يمكن إذن بواسطة الفضفضة التلقائية، ووفقا لمشيئة الزمن أن تتكرر القبلة الخاطفة القديمة دون تعمد.. لكنها الآن صارت متحررة من ضغط حاجتي لمعرفة ما الذي يشعر به البشر أثناء التقبيل، ومن غضب أختي التي لن تصرخ في وجهي : (بطّل قلة أدب).

* * *

لماذا بعد موت كل واحد منهم - وليس قبل ذلك أبدا - أكتشف أنه لم يقرأ ما كتبته في كشكولي الأبيض فحسب، وإنما أضاف إليه صفحات أخرى لا تظهر على الإطلاق طوال حياته؟.

(35) التضخيم والتأخير والإطالة

أثناء المطر الليلي أدفس رأسي في حضن (ملك)، أجذب البطانية الثقيلة فوقنا ثم أحتضنها بقوة، وأخبرها بحماس مغامر أن علينا الانكماش داخل سفينة الفضاء التي ستنطلق حالا بنا.. تضحك (ملك)، وتفرك قدميها بشغف دون أن تفهم.. حينما تكبر ستعرف أن السرير في الشتاء يمكنه أن يسافر بحريرية تامة إلى كواكب بعيدة، وعوالم سحرية آمنة لو ظللنا ملتحمين ببعضنا، فرحين بالعاطفة المتبادلة بين البرد والدفء.

حاولت طوال حياتي تعيين منهج شبه ثابت لحماية نفسي من القهر الناجم عن الوعي بالضآلة في مواجهة التعقيد والصخب.. نوع من تشييد حصانة دائمة لمعالجة الإذلال المسكون باللامعرفة، وبعدم حيازة القدرة الخارقة على الإحاطة الشاملة بكافة التراكمات المتصارعة للتاريخ.. حاولت أن أحقق حلم الاختزال المحكم للوجود الذي يجعلك تتآلف مع الآماد اللانهائية الغامضة للزمن، وللحياة والموت: منذ المرحلة الابتدائية وحتى الآن ظللت أكوّن مجموعات عمل متغيرة من الأصدقاء. لا يزيدون عن ثلاثة بأي حال من الأحوال.. هذه المجموعات ظللت أبدل في أفرادها، وفي موضوعات عملها تبعاً لانشغالاتي الذهنية، ولنوعية الأصدقاء الذين أصادفهم.. لكن المبدأ الثابت في هذه الموضوعات هو تناول فكرة لها علاقة بالماضي.. إلمام بتفاصيل حضور قديم ملغز يمتلك عمقا طفوليا مثيرا.. قمت

مع أصدقاء كل مرحلة بالشروع في دراسات عن: الفضاء والكواكب الأخرى، تاريخ الكوميديا، حقبة الثمانينيات، الأساطير، تاريخ الأدب البوليسي.. لم تكتمل أي دراسة منها أبدا.

ذات ليلة كنت أعمل في كتاب لي عن تاريخ مدينة (المنصورة)، وبينما كنت أتصفح أحد المنتديات على الإنترنت الخاصة بها لاحظت أن أعضائه ينعون زميلة شابة توفت بالأمس.. كانت أول مرة أدخل فيها هذا المنتدى، ووجدت نفسي أتتبع كل ما كُتب عن هذه البنت حتى أعرف سبب وفاتها.. لم يذكر أي أحد السبب على الإطلاق، فذهبت إلى ملفها الشخصي لاستعراض مشاركاتها حتى أجد أي حديث لها عن مرضها، ولكنني لم أجد.. كانت موضوعاتها عادية تميل إلى الجانب الديني التقليدي دون ذكر لأي معاناة شخصية.. أخذت إسمها، ووضعته في محركات البحث عسى أن أحصل على نتائج تفيدني، ولكنني لم أعثر على إجابة.. كنت قد استبعدت من رأسي تماما أي تفكير في العمل، واندفعت وراء الوصول لحقيقة موت هذه البنت، كأنني في صراع غير متكافىء مع قوة مجهولة من أجل البقاء.. هذه الليلة انقضت بعد ساعات طويلة دون أن أعرف شيئاً.

لا يكتفي الآخرون بترك سفينة الفضاء في اللحظات غير المناسبة.. يأخذونني أيضا معهم، وأحيانا بإرادتي حتى أجد فرصة أخرى للعودة إليها من جديد بصحبة بشر غيرهم.. لماذا يريد العالم أن أتمسّك بإيماني بأن جميع الأشياء قابلة للتحوّل إلي سفن فضائية، ولماذا يدفعني دائما للتخلص من هذا اليقين؟.. الانكماش ليس قائما على الهروب، هو مرتبط بالخوف طبعا، لكنه نوع من التدعيم الخيالي للفحولة طمعاً في الوصول إلى الإشباع الكامل.. أن تجعل الحياة لا تستغني أبدا عن قضيبك، وتلقي بك في

الموت.. لكن ـ وكما جاء في جميع الكتب والنصوص المقدسة ـ فإنه مهما بلغ عضوك من الطول والضخامة، ومهما تأخرت في القذف، لا تنسى أبداً أنك في الحقيقة تستمني داخل ثلاجة ضيقة.

(36) تفسير الأحلام

كأن شيئا في الدنيا لا يزال يعنيها، وكأن تغييرا ما سيطرأ على سقوطها من النجوم المرسومة في القصص القديمة؛ كان لابد أن تسأله عن سبب اتخاذه موقفا عدائيا وهو يتحدث عن كاتب النص.. لو كان هذا سؤال حقا لكان ينبغي أن تلتفت إليه، لكنها ظلت تواجهه بظهرها العاري لأنها لم تكن تنتظر إجابة.. أرادت أيضا ألا تعطيه وجهها حتى لا يتورط في إجابة خاطئة بينما تستعيد بهمس مسموع :

(رغم أفكاره المشوّشة للغاية منذ فترة طويلة عن الأمل، لكنه فرح بحماس كبير لما قالت أنها تعشق مثله رائحة الحافة الخشبية للنافذة المبتلة بماء المطر)...

هو أيضا أدرك ذلك فسمح لنفسه أن يصمت قليلا، وأن يمد يده ليتحسس مؤخرتها الممتلئة الناعمة دون أن يخشى من أن تعتبر تصرفه تجاهلا لاستفهامها.. كان يعرف الإجابة، ولم يكن يحتاج وقتا لمراجعتها في ذهنه، بل قرر أن يجيبها فعلا رغم أنها لم تكن تسأله، لكنه كان يريد أن يلمسها أولا تحسبا لأن تعتبر كل الإجابات خاطئة.. قال لها أن هذا أقصى ما كان يقدر عليه ذلك الكاتب: أن يفرح وهو محنّط في مكانه متوهما أن هذا هو كل الفرح الممكن، أن يتشكك حتى في انتصاراته الصغيرة ليهدمها ثم يعيد

بنائها بنية هدمها ثانية ليحمي التحنيط كمعجزة منقذة أو كحقيقة وحيدة بينما هي كانت أشجع منه؛ فهو الذي كتب عنها :

(وهي.. رغم السرطان الذي التهم رحمها، لكنها حدثته عن رغبتها في ابتلاع سائله المنوي حينما يتقابلان في سرير واحد ذات يوم لتحتفظ بشهوته داخلها)...

لم يكن أي منهما يعرف الآخر.. لم يكن أي منهما أيضا ينتمي إلى هذه المدينة.. لكنهما اكتشفا ـ بجانب أن الغيوم كثيفة وأنه يمكن انتزاعها ووضعها في سماوات أخرى ـ أن كلا منهما أيضا قرأ (Download Free Games).

جلست لتسند رأسها على الوسادة المنتصبة.. نظرت إليه مطمئنة لانهماك عينيه في التهام ثدييها الكبيرين، والذي منعه من الانتباه لابتسامتها الخفيفة الخاطفة، وتفسيرها على أنها اقتناع بكلامه أو رفض متهكم له.. قالت في نفسها أنه يفعل الآن ما يقوم به الرجال عادة في هذه اللحظة: تثبيت قوة ذكورية، وتغطية ما قد ينكشف من ضعف أمام امرأة ما عبر تحطيم رجل غائب.

اقتربت منه، ووضعت نفسها في حضنه وهي تتمنى أن يعرف ـ دون حاجة لأن تخبره بنفسها ـ بأن هناك نوعاً من الألوهة المضادة في التصديق المتلهف لأي كيتش رومانسي يتسلل إليك فجأة وأنت مستغرق في تدعيم حصونك المقاومة له، وأن هذا ما يجب فهمه من :

(في هذه اللحظة الإلكترونية الهامة من تاريخ الـ yahoo messenger لا يوجد أحد يخدع أحداً، رغم أن كلاً منهما يعلم أن لديه

سجلاً عائلياً يحرمه من كافة الأعذار الممكنة لتبرير ما يحدث الآن في (المنصورة) و(دبي)، إلا أن هذه الليلة لم تمر دون أن يحصل الله على فكرة إنسانية أفضل عن نواياه تجاه البشر)...

رغم أنه كان يريد أن يدخلها مرة أخرى الآن، ورغم أنه شعر بامتنانها الناعس ليديه وهما تتحسان كل ما يمكن بلوغه من جسمها وهي في حضنه، إلا أن شيئا ما في عينيها جعله ينتظر، وبالتالي أصاب يديه بعصبية مباغتة بينما تتحركان فوق لحمها كأنهما تنويان تقطيعه تدريجيا.. أراد أن يفصل هواجسه المتشابكة عن بعضها ليتمسّك بيقين ثابت يحدد لكلماته التالية مسارا ناجحاً.. حاول أن يسخر من رغبته في تفسير الصدفة التي جمعت بينهما، ولكنه قرر أنه من الأجدر أن يخبرها بأنه لا يمانع من استخدام أي حماقات لغوية مستهلكة للتعبير عن شغفه أو تعلقه بامرأة ما طالما أن تجليات العاطفة نفسها تعمل بقوة ضد هراءها الكلاسيكي، وهذا ما يعطي انطباعا بأن الكاتب كان مبالغا في حماية نفسه حينما كتب :

(رغم أنهما ظاهرياً على الأقل كانا يبدوان كمحنّكين استفادا جيداً من دروس الماضي؛ فهما لم يتبادلا كلمات مثل: (أحبك) و(لم أكن حياً قبل أن أقابلك) و(أريد أن أعيش معك حتى آخر لحظة من عمري)، مع ذلك كان لكل منهما خبرة موازية بالحياة والموت. ربما تكون هي نفس الخبرة حقا التي جعلتهما محنّكين هكذا. سمحت لهذه اللحظة أن تحدث، وبتلك التلقائية البريئة الأشبه بإصابة مفاجئة بفقدان الذاكرة، لم يعد مستغرباً معها أن تفرح كمتفاءل تقليدي عثر على شبيه يشاركه في تغيير العالم)...

لأن الموت يكمن في الهوامش الفارغة الممتدة بلا نهاية حول الأساطير كان على كل منهما أن يقابل الآخر هذا الصباح.. كان على كل منهما النظر في عيني الآخر وهو يقترب منه محاولاً العثور على الكلمات المختبئة داخل المخطوط، أو لانتزاع الصوت الذي لم يُسمع أبداً من قبل.. كان عليهما صعود السلالم المؤدية إلى هذا السرير لمعرفة الحكاية كاملة للمرة الأولى.

سمعها تقول دون أن ترفع وجهها إليه أنه كان يجب على البنت أن تحسم أمرهما.. تركت حضنه ثم غادرت السرير ووقفت أمامه فبدا عريها راسخاً بخبرة حروب كثيرة، وينتظر خروجًا ما.. عادت لتخبره بأنه كان يجب على البنت الابتعاد عنه قبل أن تموت لأنه لا يستحق أن يعيش ذلك الألم الذي جعله يكتب :

)من يصدّق؟!.. ليس هذا فحسب.. كان كل منهما يعلم أيضا أن هذه اللحظة ستصبح بمرور الزمن مجرد وقت عادي ينتمي لسنوات عادية، يمكن تمضيتها في تبادل الإيميلات والمكالمات الهاتفية والرسائل القصيرة ودون لقاء واحد.. سنوات عادية هي في الحقيقة استمرار طبيعي جدا للسجل العائلي القديم، مع ذلك لم يكن هناك أحد يخدع أحدا.. رغم علمه بأنه لا يزال محافظا على عادته الطفولية بالوقوف في النافذة وقت المطر ليتنفس رائحة الحافة الخشبية، وأنه منذ فترة طويلة لم يعد يشعر بالنافذة أو بالمطر أو بالرائحة.. وهي رغم علمها بأن الآلام التي تمزق أمعائها تزداد شراسة، وأنها تتقيأ كثيرا، وأن منتصف الليل سيأتي كل يوم لسنوات متعاقبة، وسيظل اسمها منطفئا فوق شاشته، تأكيدا على كفاءة الماسنجر في التعامل مع الـ offline.. رغم علمها أنها ستغيب وتتركه. ربما حتى آخر لحظة من عمره.

يتصور أنها ربما قررت تغيير العالم بدونه أو تمضية سنواتها العادية بعيدا عنه.. رغم علمه أنه مهما مرت الأعوام بدونها فإنه لن يتصل أبدا بمنزل أسرتها كي لا يخبره أحد أن السرطان أتم مهمته بنجاح)...

لم تنزل نظرته المحدقة إلى جسمها.. ظلت قابضة على وجهها وهو يفكر في ما الذي يجعله حريصا على عدم فقدانها إلى هذه الدرجة رغم يقينه أن في غيابها سيتمكن من استرداد تحرره المعتم الذي يوفر له الموت في غفلة من الآخرين.. وجد نفسه يترك السرير كذلك، ويقف أمامها بعري طفل لم يركب بعد أرجوحته المناسبة ثم يخبرها بأنه على العكس يرى أن الكاتب كان يستحق هذه التعاسة لأنه لم يفعل أي شيء لتحقيق رغبتهما في أن يكونا معا قبل موتها أو حتى قبل أن ينفصلا ويمضي كل منهما في حياته، لذا كان يخدعها، وكان يقصد نفسه بالتأكيد حين كتب في نهاية النص :

(مع ذلك حدثت هذه اللحظة بينهما.. التي كان فيها طبعاً يوجد أحد يخدع أحداً)...

لماذا يمكن لرجل وامرأة أن يفكرا وهما يرتديان ملابسهما في أن الهوامش الفارغة لن يمكن أن يملأها كل ما في الخوف والخيال والحنين فحسب بل سيزيدها اتساعا.. لماذا عليهما وهما ينزلان السلالم أن يقول كل منهما لنفسه بأنه لا يوجد زمن يكفي لاستبدال الحبكة أو لتغيير النهايات السيئة.. في الشارع نظر كل منهما في عيني الآخر ثم سألا بعضهما في نفس اللحظة: هل تقابل الكاتب مع البنت المريضة بالسرطان ولو لمرة واحدة قبل موتها، أو قبل أن يمضى كل منهما في حياته؟.. بالطبع كان يجب أن يتركا

بعضهما، ويمشى كل منهما في اتجاه مختلف دون أن يجيب أحدهما الآخر حيث لم يكن هناك أدنى تأكد لديهما من أنهما تقابلا أصلا هذا الصباح.

قصص المجموعة

. سباق الدعابات الثقيلة.
. أخسر بخطة نابليون كل صباح.
. الحوض الزجاجي.
. ليس مجرد جبل يمكن هدمه بالأظافر.
. الفريند ليست.
. القيمة الروحية.
. دراسة عن العمليات الانتحارية.
. موزة كاملة في الفم.
. رسم النار.
. دخول المرآة.
. أجنحة البركان.
. الميت.
. الحجرة التي بجوار محل سليمان الصايغ.
. رهاب اللمس.
. اقتفاء الأثر.
. الليالي.
. جلد العاطل.
. الحكايات الكبرى.
. البقع الحمراء الكبيرة.
. الذهاب إلى هناك.

. خطوة وهمية أبعد.

. خزانة المشي.

. عضو واحد.

. تحريك الرصاصة.

. إنقاذ جيروم.

. ظلال محنطة.

. الظلام.

. قطع الحبال.

. المؤخرات.

. الطبقة الوسطى.

. لا يوجد موت مفاجئ.

. رائحة الفم الكريهة.

. Hitomi Tanaka in The Bus

. قتل فرويد.

. التضخيم والتأخير والإطالة.

. تفسير الأحلام.

ممدوح رزق

كاتب وناقد مصري

وُلد في (المنصورة) 1977

صدر له:

. بعد صراع طويل مع المرض/شعر . دار عرب للنشر والتوزيع 2015

. فأر يحتفل بخطاب الحقيقة/مسرحية . دار عرب للنشر والتوزيع 2014

. الفشل في النوم مع السيدة نون/رواية . دار الحضارة للنشر والتوزيع 2013

. مكان جيد لسلحفاة محنطة/مجموعة قصصية . سلسلة حروف (الهيئة العامة لقصور الثقافة) 2013

. الخبراء في الحياة/مسرحية من فصل واحد . دار ميتا للنشر والتوزيع 2013

. عداء النص/مقالات نقدية . دار حروف منثورة للنشر الالكتروني 2013

. صندوق الذكريات/مجموعة قصصية للأطفال . دار عرب للنشر والتوزيع 2013

. خلق الموتى/رواية . سلسلة إبداع الحرية 2012

. قبل القيامة بقليل/مجموعة قصصية . دار عرب للنشر والتوزيع 2011

. سوبر ماريو/رواية . دار ميتا للنشر والتوزيع 2010

. بعد كل إغماءة ناقصة/نصوص . دار المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات 2009

. السيئ في الأمر/نصوص . دار أكتب للنشر والتوزيع 2008

. رعشة أصابعه.. روح دعابة لم تكن كافية لتصديق مزحة/نصوص . مكتبة معابر الالكترونية 2004

. جسد باتجاه نافذة مغلقة/مجموعة قصصية . سلسلة أدب الجماهير 2001

. احتقان/مجموعة قصصية . سلسلة إبداعات (الهيئة العامة لقصور الثقافة) 2001

. انفلات مصاحب لأشياء بعيدة/مجموعة قصصية . مطبوعات إقليم شرق الدلتا (الهيئة العامة لقصور الثقافة) 1998

كتب مشتركة:

. يوم واحد من العزلة/مجموعة قصص قصيرة جداً مع كتّاب عرب . دار فراديس للنشر والتوزيع 2013

. الكاتب وتحديات اللحظة الراهنة/دراسات مؤتمر اليوم الواحد لاتحاد الكتّاب مع نقاد مصريين 2012

. النمو بطريقة طبيعية/مجموعة قصصية مع كتّاب مصريين . دار ملامح للنشر 2009

. العامية كنز الإبداع/دراسات الملتقى الثاني للمّة بيت العامية المصرية مع نقاد مصريين 2009

. ملامح وعرة/ديوان شعر مع الشاعرين السوري (عبدالوهاب عزاوي)، والعراقي (صلاح حسن) . اتحاد كتّاب الانترنت العرب 2005

أفلام:

. قصة وسيناريو فيلم (إخفاء العالم)/روائي قصير . مع فناني أفلام إسكندرية المستقلة/إخراج: محمد صبري 2012

. سيناريو فيلم (من أجندة الخيانة)/روائي قصير . بالاشتراك مع المخرجة الإماراتية (منال بن عمرو)/مجموعة دبي للأفلام . إخراج: منال بن عمرو 2008/شارك بمهرجان الخليج السينمائي 2008

. قصة وإخراج فيلم (بازل)/موبايل . شارك بمهرجان القاهرة لأفلام الموبايل 2008

ترجمة:

. قصة (النمو بطريقة طبيعية) إلى الفرنسية/ترجمة: سعاد بني أخي . منتديات من المحيط إلى الخليج 2010

. (Download Free Games)إلى الفرنسية/ترجمة: آسية السخيري . موقع دروب 2007

. نص (رحم واسع يسمح بهزة رأس صغيرة) إلى الفرنسية/ترجمة: قيس سعدي . مجلة (أوغاريت)/العدد الرابع (ربيع 2005 (

. مختارات من مجموعة (انفلات مصاحب لأشياء بعيدة) إلى الإنجليزية/ترجمة: مسعد عبد الرحمن . مركز إبداع للنشر والترجمة 1998

جوائز:

. جائزة اتحاد كتّاب مصر عن قصة (دخول المرآة) . 2014

. جائزة نادي القصة عن قصة (إنقاذ جيروم) . 2013

. جائزة رابطة الأدباء العرب عن قصة (التخلص من الذباب) . 2013

. جائزة (أحمد بوزفور) المغربية في القصة القصيرة عن قصة (إنقاذ جيروم) . 2013

. جائزة شبكة المنصورة الإخبارية في القصة القصيرة عن قصة (الثقب الذي لا يعنينا في الساحر الطيب) . 2012

. جائزة دار ملامح للنشر في القصة القصيرة عن قصة (النمو بطريقة طبيعية) . 2008

. جائزة ملتقى مدد في الشعر عن نص (نار هادئة) . 2007

. جائزة منتدى جريدة شروق الإعلامي الأدبي في القصة القصيرة عن قصة (بلا أدنى خجل) . 2006

تحت الطبع:

. ترويض العزلة/قراءات في كلاسيكيات القصة القصيرة

. عتبات المحو/مقالات في النقد التطبيقي.

. جرافيتي المنصورة/رواية.

. دفّة المركب الصغيرة/مسرحية (ميلودراما).

. مكائد القص/دراسات في تقنيات القصة القصيرة.